العدد ٧٠٦ - بتاريخ: ١٣ - ٠١ - ١٩٤٧

إلى إخواننا في أعالي الوادي

يا أشقاءنا الأعزة في أعالي الوادي! ما بال نفر منكم يريدون أن يقطعوا ما أمر الله به أن يوصل؟ ألسنا وإياكم شعب واحد ما في ذلك [illegible] ولا [illegible]. خلقنا الله جميعا من هذا النهر المبارك: من صلصال أرضه ومن سلسال مائه، ثم سوّانا على صور متشابهة في الطباع والملامح، حتى في الوجوه فلا يكاد يختلف إلا في [illegible] ما تغلب عليه من أديم الأرض، ثم أورثنا هذا الفردوس الأرضي، وارتضى لنا الإسلام دينا والعربية لغة، فكيف يصح في الدين أو في العقل أو في الطبيعة أن يساعد هذا النفر هذه الحية الشريرة على أن [illegible] بالوعيد و[illegible] وتدلكم على شجرة الخلد وملك الأبد؟

إن حية الإنجليز ليست من حيات السودان ومصر، كما أن حية إبليس لم تكن من حيات حواء وآدم. إنما هي واغلة متطفلة [illegible] الاستعمار [illegible] ووسائلها [illegible] من [illegible] الغرب وطائرات [illegible] إلى [illegible] وأكلتم من ثمار هذه الشجرة [illegible] جميعا من الجنة [illegible] الحية بأعلى الفردوس [illegible] على [illegible] ثم تأمر [illegible] الإنجليز [illegible] الروح ومسالك الأرض [illegible] هذه [illegible] ولا [illegible] إلى هذا [illegible] السماوات والأرض [illegible] الحياة في هذه [illegible] الوادي [illegible] إلا على [illegible] ولا [illegible] الضروري إلا في [illegible] الذي [illegible] من [illegible] الطبيعة ولا [illegible] من [illegible] والكتاب وكل مدينة منها في جهة من جهات الدنيا الأربع [illegible] أن تجمع بين القاهرة والخرطوم وهما [illegible] في قطر واحد [illegible] واحد؟؟

يا إخواننا في أعالي الوادي! إذا كان [illegible] بين [illegible] فكيف لا [illegible] بين مصر والسودان؟ [illegible] ولا [illegible] والحمد لله [illegible] ولكن [illegible] في [illegible] والله [illegible]

أحمد حسن الزيات

الأمير شكيب أرسلان
وحركة الاصلاح

للأستاذ رفائيل بطى

فقد العرب والمسلمون فى هذه الأيام شخصية متوهجة جبارة من الشخصيات التى عرفها عصر النهضة الحديثة عند العرب، فقامت بنصيبها من العمل الكبير فى نواحى التحرير السياسى، أو إيقاظ الرقود، وبعث الهمم فى النفوس، أو إبراز عبقرية هذه الأمة فى العلوم والآداب والفنون، بحيث انبثق من هذه المساعى المشتركة والمتواصلة فجر الانبعاث الذى ينير لنا طريق المستقبل للناطقين بالضاد.

ومما يؤسف له أن هذا الطراز من رجال العلم والعمل قد قل فى العهد الأخير فصرنا كلما فقدنا واحداً منهم لا نجد من يشغل مكانه أو يسد الفراغ الذى أحدثه فقدانه. ولا سيما هؤلاء النوابغ الذين دفعتهم علو همتهم وأسعفتهم مواهبهم فجمعوا إلى التبحر فى اللغة والتمكن من أسرار البيان فحولة فى النظم والنثر، ومعرفة واسعة بما يتصل بقومهم وعشائرهم ودينهم من تاريخ، وخبرة بشؤونهم العامة فى السياسة والاجتماع والاقتصاد، يتوج كل هذه القابليات حماسة فى الكتابة والتأليف، حبا بأن يشارك القراء الكاتب أو الباحث فى صنوف المعارف التى تفيض بها صدورهم. ولعل فقيد العروبة والإسلام الأمير شكيب أرسلان خير مثال لهذه الطبقة من أعلام اليقظة.

تعددت مجالى النشاط الذى أخذ به أمير البيان لتنوير الأذهان، وبعث الأمجاد الخالية، وتوجيه الأفكار نحو طرق النهوض والإصلاح، فقد عنى فى أول نشأته باللغة والأدب فنشر (الدرة اليتيمة) لابن المقفع من أول عهد شدا فيه الأدب قبل نحو خمسين سنة. ثم عالج الشعر فنظم فى أبوابه المتنوعة وجرت له مساجلات ومراجعات فى القصيد مع بعض شعراء جيله، منهم محمود سامى باشا البارودى، الذى انعقد له لواء الزعامة فى تجديد ديباجة الشعر العربى البليغ بعد أن أخلقت وعفى عليها الزمن بالركاكة والغثاثة. ومع أن الأمير لم يتفرغ للنظم لتوزع قريحته فى أمور ومسائل متعددة بحيث كان مصليا فى حلبة الشعر، فإن ما خلفه من القصائد الحسان يعبر عن سليقة خصبة، وطبع سليم مؤات لجيد المنظوم.

واستحكام أواصر المودة بين أمير البيان وأمير الشعراء، بما سجله قلم الكاتب العظيم فى كتابه: (شوقى أو صداقة أربعين عاما) يدل على تجاوب روحى بين هذين العلمين النيرين.

ولما اشتد ساعد شكيب ونضج فكره، دفعه حب الاستطلاع وروح الغيرة المتقد فى ذهنه، إلى الاتصال بالصفوة المختارة من رواد النهضة والإصلاح، ولا سيما السيد جمال الدين الأفغانى، والشيخ محمد عبده، والشيخ طاهر الجزائرى، فاقتبس من أنوارهم، وثقف من مبتكراتهم، وتطلع إلى سمة آفاقهم، ما أنشأه هذه النشأة الحافلة فظل حياته مهموما بدراسة علل تأخر العرب والمسلمين، وسر تقدمهم فى العصر الخوالى، ووسائل إنهاضهم من كبوتهم. وكم جرى قلمه بمقالات وبحوث، ووعت تواليفه من آراء وخطط تجرى فى هذه المسالك الرشيدة، والتابع لسيرة الرجل يجد أنه لم يقصر همه على الكتابة والتأليف فى السعى مع الساعين لخلق النهضة الجديدة، إنما خاض غمار مداولات مع رجال الدول والممالك، واتصل بهيئات وجماعات مختلفة الأجناس والنزعات جرياً وراء هذا الهدف القوى السامى.

وقد كان الأمير حريصاً على المكاتبة طويل النفس فى المراسلة يمده روحه الحائر العالق بأهداب المجد، بالجلد والمواظبة على هذا الجهد، فلا يقف عند الكتابة، والتصنيف فى الموضوعات التى يهواها.

وأمر واحد لم يشتهر به شكيب أرسلان هو الخطابة، فلم يؤثر عنه مواقف خطابية ذات خطر، ولعل لانقضاء أمد طويل عليه يطوف فى البلدان، ويتنقل فى المهاجر، حاملا رسالة البعث العربى الإسلامى وفى قلبه إيمان راسخ، وفى يده قلم عسال، مما احتسبهما لخدمة بنى أمه خدمة نصوحا، جعله أن يبقى بعيداً عن المنابر.

والميزة التى اشتهر بها الفقيد الجليل وستخلد آثاره على وجه الزمن هذه الإحاطة المدهشة بأحوال العرب وشؤون المسلمين

تحت كل كوكب ، ومن شواهد هذه الخصيصة تعليقاته على كتاب : (حاضر العالم الإسلامى) لستودارد الأمريكي ، فإن حواشيه وشروحه والفوائد التي علقها على متن مترجمه الأستاذ عجاج نويهض للكتاب تستوعب مجلدين كبيرين من كتب اليوم وفيها من صفة ديار العرب والمسلمين وأوضاع أهليها ما قلما تعثر عليه فى مظنة أخرى . وفى هذا السفر صفحات لامعة كتبها علامتنا فى الترجمة لجماعة من زعماء الشرق عرفهم وخبرهم بنفسه ما يكشف عن مغاليق حياتهم ويوجد مفتاح شخصياتهم ، كما شحن الكتاب بذكريات له عن أطوار فى سياسة الشرقيين ، ووثبات التحرر والانعتاق فى ربوعهم .

ومما ألح فى هوايته فى سنيه الأخيرة وقد ساقه إليه شغفه بحب قوميته وإعجابه بحضارة أمته فى الأعوام الطوية (تاريخ الأندلس) بعد أن خلبت لبه آثارها الباقية فى بلاد المجد المفقود عندما وقف على مشاهدها فانصرف إلى تأليف كتابه النفيس : (الحلل السندسية) الذى طبع منه بضعة أجزاء ولما يتمه .

وشاء أن يسجل رحلته إلى البلاد المقدسة فى رسالة ممتعة هى (الارتسامات اللطاف). وحفزه وفاؤه لإخوانه وبره بأصدقائه إلى وضع كتاب : (السيد رشيد رضا أو إخاء أربعين عاما) . تقف فى تضاعيفه على مراحل فكرة الجامعة الإسلامية والثورة العربية ، وكثير من مناورات دول أوربا وألاعيب الإستعمار فى هذه الرقعة من الشرق .

إن مخلفات الأمير شكيب ونصانيفة الخالدة كثيرة ، لا تستوعبها هذه الكلمة ، فحسبي أنني أشرت إلى بعضها ، وعندي أن من واجب أصحاب المروءة ، وأعوان الفضل ، والقدرين للرجال أن تتألف منهم جماعة (لتخليد ذكرى أمير البيان) وأول عمل تتوجه إليه ، لإشادة بناء هذا التخليد البحث عن كتاباته ودراساته ورسائله التي لما تطبع ، فتطبعها فى كتب يتيسر اقتناؤها إحياء لذكراه ، وإتماماً لرسالته وتعزيزاً للفكرة العليا التي اهتدى بها الراحل الهمام فى جهاده .

ومن رسائله الطريفة التي تحمل فكرته الإصلاحية ما نشر بعنوان (لماذا تأخر المسلمون ؟ ولماذا تقدم غيرهم ؟) وهى فصول كتبها المصلح الإسلامى جواباً على اقتراح من الشيخ محمد بسيونى عمران إمام مهراجا جزيرة سمبس برنيو (جاوه) ، بأن يكتب لمجلة (المنار) فى أسباب ضعف المسلمين فى هذا العصر وأسباب قوة الإفرنج واليابان وعزتهم بالملك والسيادة والقوة والثروة ، فكتب شكيب رأيه ، وطبع فى كتاب مرتين بعد أن أذاعته المجلة الشهيرة .

يعتقد الأمير الكاتب فى بحثه التحليلى هذا أن عز المسلمين قام أول الأمر بالتمسك بأهداب الإسلام الصحيح ، والاهتداء بهدى القرآن الكريم ، فلما فقد العرب والمسلمون هذه الحماسة وانحرفوا عن التعاليم القويمة ضعفوا وهانوا ، فلم يبق لهم اليوم سخاء الإفرنج فى المشروعات العامة ، والفاداة فى الذود عن حياضهم ببذل الدم والمال ، وإن من أول أسباب تقهقرهم فى العصور المتأخرة فقدانهم كل ثقة بأنفسهم رغماً عن مقدرتهم على العمل ، واستشهد على هذه القدرة على العمل بمشروعى إنشاء خط الحجاز الحديدى ونبوغ طلعت حرب باشا فى تشييد بنك مصر والأخذ بمصانعه ومعامله الناجحة .

والسيد الارسلانى يؤمن بأن العلم كفيل ببعث الأمة ، العلم القائم على ركنين : العلم الطبيعى وعلم الدين . ومحصل نظريته فى نهضة الشرق العربى والأمم الإسلامية ، أن الأمة لا يتم لها النهوض والغلبة إلا بالتضحية أو الجهاد بالمال والنفس ، فإذا تعلمت هذا العلم وعملت به دانت لها سائر العلوم والمعارف ، وإن المضطلعين بالإصلاح غير محتاجين إلى أن يكونوا من كبار رجال العلوم والفنون بل يكفى إذا أوتوا العقل السليم والإرادة النافذة ، والتوجه نحو الأعمال ، لا الاكتفاء بالتمنى والآمال .

وبين ثنايا الكتاب لشواهد وفرائد عن أحوال الناطقين بالضاد وأتباع محمد بالقياس إلى أمم أوربا الناهضة ما يقنع القارىء ويورى زناد الفكر عند من يطلع فيدرك فيتأثر .

وفق الله الأمة ، لتعمل بإرشاد رجالها المصلحين ، فتفوز وتسعد .

رفائيل بطى

يا ليـــل ...!

للأستاذ الأسدى محمد خير الله

[بحث طريف قيم فى أصل هذه الكلمة وتطورها ، تفضل به على « الرسالة » الأستاذ الأسدى أديب حلب ونحويها ، وهو يزور مصر الآن فى مهمة ثقافية ، فيلى الرحب والسعة] .

باليل ! وكم أرسلت حناجر الشداة ترنم باليل ! فهل للتحقيق اللغوى أن يتولاها بحظ من الدراسة ؟ سنحاول ذلك . سنبسط فى البداءة مذاهب معاصرينا الدائرة حولها ثم نمضى فى مناقشتها . حتى إذا دحضتها مقاييس التحقيق أفضى بنا البحث إلى الإدلاء بمذهبنا

المذهب الأول :

حدثنا ضيفنا الأستاذ رجب المصرى أن صديقنا الأستاذ خليل مردم بك يذهب إلى أن أصلها « ياليل » بفتح اللام . من أعلام النساء ، كان يتغنى به العرب . فلما طرقت ديار الفرس التبست عليهم صورتها . فصحفوها إلى « ياليلى » بكسر اللام ، وجرى الناس على غرارهم .

وإذا جارينا نحن هذا المذهب كان علينا أن نقول : إن « ياليل » المرسلة المطلقة من الإضافة إلى ياء المتكلم إنما هى من مرخم ليلى ، كما فى قول الفرزدق :(1)

متى ما بعت عانيك يا ليل تملى

المناقشة :

١ — يقضى هذا المذهب إلى أن العرب نادوا ليلى صحيحاً ، ثم حرفه الفرس ، ثم استعاده العرب منهم محرفاً ، فهجروا لفظهم الصحيح ، واستعملوا لفظ غيرهم المحرف ، وهو ما يستبعد .

٢ — إن الغناء ألصق بحاسة السمع منه بحاسة البصر . فالأذن وهى السبيل الأوحد لدرك النغم — ليس لها بعد أن تتلقف من اهتزازات الهواء « ليلى » أن تأذن للفم أن يعيدها مكسورة اللام استجابة لما قد تتوهمه العين .

٣ — أقام الأصبهانى والنويرى وغيرهما معارض واسعة الأرجاء لما كان يتغنى به الأقدمون ، لم يسجل خلالها أن العرب تغنوا بليلى ، ولو أن اسمها تداخل الشعر كثيراً ، وبصورة أدق لم يكن « يا ليلى » لازمة غنائية تردد .

٤ — لم يقم بين يدى هـذا المذهب حجة ما تدعمه ، أو تحملنا — على الأقل — على الاستئناس به

٥ — سألنا من عرفناه ممن يحسن الفارسية : هل هناك أثارة من يا ليلى فى الغناء الفارسى ؟ فنفى

المذهب الثانى :

جاء فى مجلة المجمع الملكى(1) ، من مقالة لصديقنا الأستاذ عيسى اسكندر المعلوف : ومن القبطية . . . وقولهم فى الغناء « ياليلى » بمعنى ياطربى

المناقشة :

١ — انفردت العربية . دون اخواتها السامية باستعمال « يا للنداء » ، فما ظنك فى أن تشركها لغة حامية .

٢ — فى الهيرغليفية « ا » أو « ها » علامتان المنادى ، والقبطية جذرها الهيرغليفية إلا ما استمدته من اليونانية .

٣ — ازدهرت القبطية فى القرن الثالث للميلاد ، وظلت هى اللغة الرسمية ، حتى أبطلها الوليد بن عبد الملك ، واستبدل بها العربية ، ثم جاء الحاكم بأمر الله الفاطمى فأمر بابطالها بالمرة ، وعاقب من يتكلم بها(2) ، وفى خلال كل هذا العهد لم يسجل تاريخ الغناء ولا غيره « ياليلى » .

٤ — تعد القبطية أقل الموارد التى رفدت العربية ، فقصارى ما استمدته منها كلمات لا تعدو المقدين انفرد الاستاذ المعلوف بعد « ياليلى » منها

٥ — لعل ما أغرى الأستاذ بمذهبه هذا كون القبطية كالعربية من حيث أن المضاف يتقدم المضاف اليه — لا بعده — ثم من حيث أن ضمير التكلم المتصل هو الياء .

المذهب الثالث :

هو مذهب الجمهور القائل : أن « ياليل » إنما هو على حده ، أعنى أنه مناجاة لدنيا الظلام ، لما أنه يسدل أستاره على التحابين ، فهو بهذا جدير أن يرعاه الشعر والغناء . كما فى الخانة الثانية من

(1) ديوان الفرزدق ، مط الصاوى ص ٢٥٨

(1) ج ٤ ص ٣١٠

(2) مقدمة اللغة المصرية لأطون زكرى ص ٦٥ ، ١٢٠ ، ١٢٢ .

توشيح اما ومن بالجمال أنعم :

يا ليـــل إن الحبيب وافى   فشد يا ليـــل دهم خيلك
وانهض ورد الصباح عنا   دخلت ياليل تحت ذيلك

وكقول ابن خفاجة :

ياليل وجد بنجد   أما لطيفك مسرى ؟

وقول سعيد بن حميد :

ياليـــل بل يا أبد   أنائم عنك غـــد ؟
يا ليل لو تلقى الذى   ألقى بها أو تجد (١)

وعلى هذا المذهب جرى الأستاذ شلفون (٢) ، مرددا قول شوقي في عبده الحمولي :

يسمع الليل منه في الفجر يا ليـ   ـل فيصغي مستمهلا في فراره

كما جرى عليه مؤتمر الموسيقى (٣) ، قال : الغناء بكلمة يا ليل هو نداء الليل بألحان شجية مع مراعاة المقامات ، وقد يكون هذا موزونا بميزان يسمى البمب أو الوحدة المتوسطة أو أوزان أخرى مثل السماعي الدارج والأقصاق والسماعي الثقيل .

المناقشة :

١ — لاشك أن النفس تأنس بمذهب الجمهور هذا ، لما أن اللفظ جاء على حده فلا يحاد عنه إلا بدليل ، لكن هذه الظاهرة ظاهرة اللفظ جاء على حده دحضها جهرة من الألفاظ تولاها الباحثون ، دون أن تغرهم هذه الظاهرة ، وما عهد قراء مقالتنا : « حلب » ببعيد .

٢ — إن الكثير بل الأكثر الأعم من الغناء ، لا مساس له بالليل .

٣ — قد تجيء « يا ليلي » مردفة بقولهم : ياعيني وياسيدى الأمر الذى يرجح أنها نداء الإنسان .

٤ — ليس في الأدب العربي كله قصيدة افتتحت بيا ليل وتداولتها الألسن مثل قصيدة « يا ليل الصب متى غده » ادعاها الكثير ، وعارضها الأكثر ، وحفظها على توالى العصور مئات الألوف من شداة الشعر ، فما كان يقعد هؤلاء المعجبين بها المغالين بالإطراء عليها ، أن يشيدوا بأنها طبعت الغناء بطابع مطلعها ، لو كان ذلك صحيحا ؟ إن شيئا من هذا لم يكن .

(١) مجلة روضة البلابل العدد ٤ سنة ٩٢٢
(٢) ص ١٦٤ .
(٣) نهاية الأدب للنويرى ج ١ ص ١٣٨ ، ١٣٩ .

المذهب الرابع :

يقول الصديق الطبيب فؤاد رجائى في رده على موجز مقالنا هذا وقد نشرناه في مجلة الضاد : س ١٥ عدد كانون ٢ وشباط سنة ١٩٤٥ ، كما نشر رده في المجلة نفسها عدد تموز وآب سنة ١٩٤٥ :

« ولا بد لي قبل تفنيد الشق الثانى من مذهبكم أن أذكر لكم مذهبا خامسا كنت قد قرأته منذ زمن بعيد ، ونسيت أين قرأته ، وهو يقول : « وكان في الأندلس واد يسمى وادى الليل ، لأن أشجاره الملتفة كانت تحجب ضوء الشمس ، فيخال الجالس في ظلها النهار ليلا ، وكان مجمع السمار والأهلين . وحين انقرضت الدولة الأموية في الأندلس ، وهجر البلاد أهلها بقيت ذكراه عالقة في الأذهان ، فجعل المغنون يرددون اسمه تخليدا لذكراه » .

ثم قال : « وسيكون دحض هذا المذهب حين نبرهن أن لفظ « يا ليلي » لم يظهر في عالم الغناء ، إلا بعد انقراض الدولة الأندلسية بعصور عديدة ، وليس من المعقول بعث هذه الذكرى بعد عصور عديدة قضتها في دياجير العدم » .

المناقشة :

رأيت أن الصديق الأستاذ ، أورد هذا المذهب على طريقة تسجيله صحيحا كان أو خطأ ، ثم رأيت أنه دحضه ، وله ملء الحق في دحضه لشيء مما علق عليه ولما نورده فيما يلي :

١ — ذهبنا نبحث في كتب الجغرافية القديمة عن وادى ليل فلم نجد له ذكرا ؛ والأسفار التى روجعت هي المسالك والممالك لابن خرداذبة ط ليدن ، أحسن التقاسيم للمقدسى ط ليدن ، الأعلاق النفيسة لابن رسته ط ليدن ، مسالك الممالك للاصطخرى ط ليدن ، المسالك والممالك لابن حوقل ط ليدن .

على أن معجم البلدان لياقوت يذكر في الواو : والوادى : بالأندلس من أعمال بطليوس .

٢ — ذهبنا أيضا نبحث في تاريخ الأندلس ، فلم نعثر على ذكر له . وكانت مراجعنا : الصلة لابن بشكوال ط مجريط ، تكملة الصلة لابن الأبار ط مجريط ، بغية الملتمس للضبى ط مجريط ، تاريخ علماء الأندلس لابن الفرضى ط مجريط ، المعجم في أصحاب القاضى الصدفى ط مجريط ، المغرب في حلى المغرب ط

ليدن ، المغرب فى ذكر بلاد أفريقية والمغرب للبكرى ط الجزائر ، نفح الطيب المقرى الط الأزهرية .

٣ — ذاع استعمال يا ليل وما تفرع عنها فى الموشحات الأندلسية — كما سيأتى — ، فالقول بأنها استعملت بعد الجلاء تخليدا للذكرى لا يرد .

٤ — تحقيقنا الآتى يثبت أنها من أصل « يا مواليا » .

المذهب الخامس :

مذهب الصديق الطبيب فؤاد رجائى الرامى إلى أن فى الفارسية ألفاظا تعبر عن شعور الوداد ، وهى : جانم عمرم ميرم أفندم ياللا يالان يا للان . وأن يا للا وما تفرع عنها هى مصدر يا ليل ، نقلها زرياب إلى الأندلس ، فيما نقل ، أيام الحكم بن هشام ، فتداخلت الموشحات لتتلافى نقص الموازين الشعرية عن الموازين الموسيقية ، وفى هذا إخضاع الشعر للموسيقا ، بعد أن كانت الموسيقا هى الخاضعة للشعر .

استعملت هذه الألفاظ إذن لتملأ الفراغ الذى يقتضيه النغم فاملأت « جانم » فراغ تن تن ، و « أفندم » فراغ تتن تن ، ويا للا فراغ تن تتن وهكذا ، لذا أسموها ترنم : « ترل » .

ثم دخلتها ياء المتكلم العربية ، فكانت مع شىء من التحريف يا ليلى ، حدث هذا فى عهد الفاطميين ، أو ملوك الطوائف بدليل أن الموشحات التى هى فى حوزة الأستاذ الشيخ على الدرويش خالية من « يا ليلى » لكنها تظهر فجأة فى موشح : « أحن شوقا » ، وهو من تأليف عبد القادر المراغى وتلحينه ، وكان نديم السلطان حسين بن الشيخ أويس التركستانى وتوفى سنة ٨١٨ هـ كما يقول رؤوف بكتابك[1] ، فظهور هذه الياء ، حدث إذن بعد انقراض الدولة العربية فى الأندلس .

ثم تقلص ظل عمرم ميرم أفندم يا للا ، وحل محلها يا للى ، وياعينى وياسيدى .

المناقشة :

١ — لم تتداخل ألفاظ الترنم الغناء الفارسى ، فيصار إلى نقلها إلى الغناء العربى .

٢ — كل ألفاظ الترنم ذات دلالة فى الفارسية إلا يا للا وما تفرع عنها ، فإن اللغة الفارسية خالية منها .

٣ — لو حكمنا بزيادة « يا » ، كان فى الفارسية « لا لا » ومدلولها : العبد والمربى ، وإنما كان من مدلولها المربى ، لأنه يكون غالبا من العبيد — كما ينص أحمد عاصم[1] — فنداء العبد والترنم بذكره ليس من موضوع الغناء .

٤ — تند « لا لا » عن رفيقاتها المعبرة عن شعور الوداد .

٥ — لم يسجل فى ترجمة زرياب الحافلة أنه أدخل هذه الألفاظ إلى الغناء العربى .

٦ — العرب أكثر الأمم عناية بلغتهم ، فهل بعد السكوت عن تسجيل هذه الألفاظ إلى العربية مما يتناسب مع العناية ؟

٧ — لم يكن لألفاظ الترنم ظل فى الغناء العربى فيتقلص اللهم إلا نحو « جانم » مما استمد حديثا من الأتراك .

هذا وإن كنا على غير ما يذهب إليه الأستاذ فى صدد « يا ليل » ، فإننا نسجل له على مقالنا هذا أنه خير من بحث فى الموضوع ، فكان رده على مقالنا هذا سببا فى ازدياد أواصر الصداقة ، ذلك لأن الهدف إنما هو العلم والعلم وحده .

(يتبع) الأسدى محمد خير الله

(١) أساتيذ الحان ص ١٤ .

(١) ترجمة البرهان القاطع المسمى تبيان نافع ط مصر مادة « لالا » .

داود باشا

ونهضة العراق الأدبية

فى القرن التاسع عشر

للمرحوم الأستاذ رزوق عيسى

تذهب طائفة كبيرة من الأدباء والكتاب إلى أن العراق لم يكن له نهضة أدبية علمية فى القرن التاسع عشر كما كان فى ديار مصر وسورية ، وهذه فكرة خاطئة لأن تباشير تلك النهضة المباركة كانت بادية فى حواضر العراق كبغداد والموصل والبصرة والحلة وكربلاء والنجف . غير أن الأدباء الذين دونوا كتباً ورسائل عن النهضة العربية فى ذلك الزمن أغفلوا ذكر العراق وما كان عليه من النهوض فى العلم والأدب والإجتماع . ومصداقاً لقولنا أن الأستاذ أنيس زكريا النصولى لما وضع كتابه « أسباب النهضة العربية » الذى نشره عام ١٩٢٦ لم يشرك القطر العراق فى تأليفه بصحيفة واحدة .

إن ما يؤاخذ به واضع ذلك السفر أنه لم يكتب كلمة واحدة تشير إلى ما كان عليه العراق فى أوائل القرن التاسع عشر من النهضة الأدبية والعمرانية مع أن عنوان الكتاب : « أسباب النهضة العربية » ، وقد اقتصر المؤلف على ذكر أسباب النهضة فى القطرين السورى والمصرى .

لقد استاء فريق من أدباء العراق وامتعض بعضهم وعدوا ذلك الإهمال والسكوت التام إهانة كبيرة لإقليم عربى كانت تباشير تلك النهضة بادية فى معظم حواضره ومدنه ، وقد انتقد المؤلف الأستاذ سليم أفندى حسون محرر جريدة (العالم العربى) والأب أنستاس الكرملى فى مجلته لغة العرب .

وفى نظرى أن صاحب الكتاب المشار إليه لم يكتب صحيفة واحدة عن أسباب تلك النهضة فى ديار العراق اسببين ، إما لجهله ما كانت عليه بلادنا من النشور الأدبى والعلمى أو لتجاهله ، فإن كان الأول فهو معذور ، وإن كان الثانى فلا يعذر إذ قد سكت عمداً عن قطر عربى أنجب طائفة كبيرة من العلماء والأدباء والشعراء والمصلحين والمجددين .

وعلى ذلك رأيت أن الواجب يحتم على كعراقى يهمه سمعة بلاده أن أدون بضع مقالات تتناول تلك النهضة فى فجرها ، ولكن يليق بى قبل الخوض فى هذا الموضوع أن أنشر ترجمة داود باشا والى بغداد فى القرن المنصرم المعدود من أكبر أركان النهضة الحديثة فى العراق .

ولد داود باشا عام ١٧٧٤م فى تفليس قاعدة ديار الكرج ، وكان مملوكا نصرانياً اشتراه أحد النخاسين وجاء به إلى بغداد وعمره لم يتجاوز يومئذ الحادية عشرة ليهديه إلى أحد أمرائها ، فاشتراه منه مصطفى بك الربيعى وباعه لسليمان باشا الكبير والى الزوراء منذ سنة ١١٩٣—١٢١٧هـ ، ١٧٧٩—١٨٠٢م ، وقد ظهرت على محياه مخايل الذكاء وشمائل الفطنة ، فلقنه العلم والأدب وأصول الديانة الإسلامية واعتنى بأمره أشد الاعتناء ، فشب داود محباً للعلوم والمعارف مغرماً بالفقه والشريعة شهماً فاضلا صادق اللهجة والعمل . وصفوة القول بذل سيده غاية جهده فى تثقيفه وتهذيبه ، ليكون له فى شيخوخته ركناً مكيناً ومعواناً صادقاً إذا تفاقمت عليه الخطوب والرزايا ، وقد تمتع فى حياته بغرس يمينه إذ رآه نابغة عصره فكان كاتباً نحريراً ، وسياسياً محنكاً ، وقائداً مدرباً ، وبطلاً مغواراً ، ذا مقدرة عظيمة فى فك المعضلات وحل المشاكل العويصة وأفاد الزوراء فوائد جمة حينما تولى إدارتها كما ستراه فيما يلى :

بعد أن تضلع داود من آداب اللغة العربية أخذ يتردد على أدبائها الكبار ويناظرهم فى المسائل المبهمة ، وكان أيضاً يناضل علماء الدين فيما وراء الطبيعة والقضاء والقدر والثواب والعقاب والخلود والحشر ونحوها من المسائل التى أرتجت عليه أبوابها ، وهكذا صرف شطراً من حياته ، ملازماً للعلماء الأعلام منزوياً للمطالعة ، وقد أتيح له أن يقرأ بعض المسائل الفقهية العويصة على يد السيد زين العابدين جمل الليل .

كان مجلس المترجم حافلا بوجوه الأدباء والشعراء ومشاهير الكتاب ، فكان يطارح هذا ويناقش ذاك ، وينظم القصائد ويذكى شعلة المنافسة والمباراة بين شعراء قطره ، ويحث الأدباء

على التأليف والتصنيف وبجزل العطاء لمن يفوق أخدانه حتى قيل إنه لم يقو على مفارقة الأصحاب ساعة واحدة ، وكان يصحب معه فريقا من خواصه فى رحلاته ، يجالس وإياهم فى وقت فراغه ، ويتناول المباحث على أنواعها من سياسية وإدارية وأدبية ، وقد اشتهر عند الخاص والعام بحب العلم والعلماء ، حتى لقب بعالم الوزراء ووزير العلماء ، وكانت ترد عليه القصائد الرنانة والرسائل البليغة فى مدحه والثناء على أعماله المجيدة ، وقد أناط بعهدة جماعة من أدباء بغداد أن يضموا الكتب الأدبية والعلمية للقطر العراقى فامتثلوا أمره ومنهم من جمع ديوانه وقد فقد ، وله غير آثار أدبيّة وكان عالماً شاعراً وإدارياً محنكا وقائداً مدرباً .

جلس داود باشا على منصة ولاية بغداد فى ٥ ربيع الآخر سنة ١٢٣٢ هـ — ٢٢ شباط ١٨١٧ م ، فقرت به العيون ، ووفد عليه العلماء والشعراء من كل فج عميق يهنئونه ببلوغ المراد ، وما كاد يجلس على منصة الحكم حتى أجرى إصلاحات عديدة ، منها إصلاح طريقة تعليم العربية . وقد رُوى أنه أراد أن يتقن العربية ويتفنن بأساليبها ، ويقف على شواردها ونوادرها ، فأحضر أحد لغوييها الفطاحل فى عصره وطفق يتلقن عنه آدابها مدة . ففى أحد الأيام بينما كان أستاذه يقرأ عليه نبذة من علم النحو ويفسر له قواعده وشوارده بأمثلة قديمة مستطرفة سئم تلك الأمثلة البالية كضرب زيد عمراً وقتل خالد بكراً ، وخطر له إذ ذاك أن يسأل شيخه على سبيل المداعبة عن الجناية التى جناها عمرو ليستحق أن يضربه زيد كل يوم ، وينكل به هذا التنكيل الشديد مع أنه ربما لم يأت أمراً فرياً . وهل كان عمرو جباناً أو رجلا ساقط الهمة ذليل النفس إلى هذه الدرجة حتى أنه يغض الطرف عن الإهانة اللاحقة به فى كل لحظة ، ويتجرع غصص الآلام المبرحة عن طيب خاطر ، وهو ساكت لا يبدى أقل حراك .

استغرب الأستاذ ذلك الكلام كل الاستغراب وعدّه من قبيل الأوهام ، ولم يتمالك أن استلقى على قفاه من شدة الضحك ، ثم قال لدولة الوالى ليس فى الواقع يا مولاى ضارب ولا مضروب بل اعتاد النحاة من قديم الزمان أن يأتوا بأمثلة لتقريب القواعد النحوية والصرفية من أذهان طلاب العربية . فلم يرقه ذلك الجواب وعده أو هى من نسيج العنكبوت؛ فلما طلب منه المزيد استاء الشيخ من لجاجته فى مسألة تافهة جداً فسكت ولم ينبس ببنت شفة ، فاستشاط الوالى غضباً وأخذ يحرق الأرم وعد ذلك السكوت احتقاراً لشأنه وإهانة ليس وراءها إهانة ، ثم قال للأستاذ بلهجة التهكم والشرر يتطاير من عينيه : أيها الشيخ الوقور ما كان يدور فى خلدى أن بضاعة علمك خفيفة هذه الخفة ، وكنت أظنك أجل من أن تعجز عن الجواب فى مثل هذه المسألة البسيطة التى ربما أجاب عنها أولاد المكاتب ، ثم أمر الحاجب بأن يأتى بنفر من الشرطة ، ويقاد إلى السجن ذليلا صاغراً ليلقى هناك جزاء جهله وغباوته . ثم استحضر نحوياً آخر وألقى عليه ذلك السؤال بعينه ، فأجابه بنحو ما أجاب الأول ، فغضب عليه وأمر بسجنه أيضاً . وما زال يأتى بالنحويين واحداً بعد واحد ويسجنه حتى أتى على آخرهم ، فأقفرت المدارس والكتاتيب من النحويين ، وضاقت بهم غرف السجون على رحبها ، وأصبحت هذه القضية الشغل الشاغل له ولبطانته عن جميع شؤون الدولة ومصالحها . فلما ضاق ذرعاً ولم يدر ما يعمل فتق له عقله أخيراً أن يبث العيون فى اقتفاء خطوات النحاة ، ليعرض عليهم ذلك السؤال الذى أصبح لديه أعقد من ذنب الضب .

وبينما هو غائص ذات يوم فى بحر تلك الأوهام إذ بلغه أنه فى المدينة نحوى بارع طاعن فى السن قد تنحى عن منصة التعليم منذ بضع سنوات وهو ملازم داره ، فأمر فى الحال بإحضاره ، فلما مثل بين يديه أعاد عليه السؤال واستطلع رأيه فيه . فأطرق ساعة ، ثم رفع رأسه وأمارات الفوز بادية على محياه الجليل وقال: إن الجناية التى أتاها عمرو يا مولاى جسيمة جداً ، ولا أرانى مبالغاً إذا قلت إنه يستحق أن ينال من القصاص أضعاف ما نال . فتنفس صاحب الترجمة الصعداء وذهبت عنه كربته ، ثم سأله بلهجة المتلهف : وما هى تلك الجناية يا عماه؟ قال الشيخ بكل هدوء إن عمراً القليل الحياء هجم على اسم دولتكم بدون إذنكم

واغتصب منه الواو[1] ، ولما كان ذلك منافياً لحكم العدالة رأى النحويون من باب اللياقة والإنصاف أن ينتقموا من عمرو لوقاحته انتقاماً شريفاً ، فسلطوا عليه زيداً الصارم ، وأمروه أن يذيقه جهاراً كل يوم فى ردهات التدريس وغرف المكاتب من العذاب ألواناً ، حتى كثيراً ما يغمى على ذلك المسكين من شدة السياط جزاء سلبه وسرقته ، فأعجب صاحب الترجمة بذلك الجواب كل الإعجاب وأحله محلا رفيعاً بين أبناء الأعراب ، وقال له إنك حقاً لنادرة الزمان وأديب العراق وخراسان والعالم الكبير المشار إليه بالبنان . فأسألك ألا تخرج من هنا ما لم تطلب منى ما تشاء فأمرك مطاع وطلبتك مقضية ، فقال له الشيخ إذا كان لابد من طلبتى فأتوسل إليكم أن تطلقوا سبيل زملائى المسجونين الذين تركوا عيالهم ومن يلوذ بهم عالة على ذويهم ، فأمر فى الحال بإطلاقهم وأعاد عليهم رواتبهم التى كانوا يتقاضونها فى غرة كل شهر ، غير أنه اشترط عليهم أن يصلحوا طريقة تعليمهم العربية وينهجوا منهجاً جديداً ، ثم أنعم على ذلك الشيخ الرفيع المنزلة بالجوائز والصلات وقربه من مجلسه ، وأمسى من تلك الساعة مرشده الوحيد فى الملمات ، وساعده الأيمن فى حل المشاكل العويصة حتى وافاه الأجل المحتوم فعظم موته على صاحب الترجمة وحزن عليه حزناً شديداً ، وقد شيع نعشه بنفسه مع حشمه وأعيان المدينة .

وقد أفاد داود باشا الزوراء فوائد كثيرة ، فمن جملة هذه الفوائد تنظيمه الجيش على الطراز المشهور فى عصره وجلبه الصناع المهرة والأساتذة البارعين من ديار الإفرنج وسائر أقطار العالم المتمدين ، وإقامته دار صناعة « ترسخانه » ، أى معمل لصنع الأدوات الحربية والمدافع والقنابل والبنادق ونحوها من المهمات والذخائر العسكرية وتأسيسه المدارس ، وإنشاؤه دوراً للعلم والأدب وتشييده المكاتب العامرة الحاوية من الكتب المخطوطة النفيسة وغيرها من المطبوعات ، وإصداره جريدة باسم « جورنال العراق » وكانت تطبع بمطبعة حجرية ، وتعميره الجوامع ، وشقه الترع والأنهار . ومن بعض آثاره الباقية حتى الآن جامع الباب الشرقى المعروف اليوم بجامع السادة وجامع الشكنة فى الرصافة ، وهرى السيف[1] الواقع فى الجانب الغربى من بغداد « الكرخ » وقد أرخ بناءه الشيخ صالح التميمى بقوله :

أقسم بـالله الذى زينت ... سماؤه بالخنّس الكنّس[2]
أن الذى شيد هذا البنا ... ذو همة بالفلك الأطلس
داود ذا الأيدى ومن حلمه ... ما حل فى شخص سوى هرمس
فقل لمن يرغب فى مكسب ... من ناطق فيه ومن أخرس
أوف إذا كلت ومن بعد ذا ... أرخ وبالميزان لا تبخس

١٢٤٠ هـ

(يتبع) **رزوق عيسى**

---

(١) يشير الشيخ بذلك إلى زيادة واو « عمرو » لأن من حقها أن تكتب بدونها وإلى إسقاط الواو الثانية من داود فى الرسم إذ كان يجب أن يثبت لها واوان جريا على اللفظ أى « داوود » .

(١) ذهب بعض العراقيين إلى أن لفظة « سيف » بالكسر أعجمية غير أنها عربية ومعناها : ساحل البحر وساحل الوادى ، وقد يقال لكل ساحل سيف ، ويراد بالسيف فى بغداد عدة مواطن متتالية متسقة يدخر فيها القمح اليوم ، وإنما سمى بالسيف لكونه شيد على ضفة نهر دجلة على ما أظن .

(٢) الخنس الكواكب أو السيارة منها أو النجوم الخمسة . زحل والمشترى والمريخ والزهرة وعطارد ، والكنس هى كل النجوم لأنها تبدو ليلا وتخفى نهاراً

الناحية العلمية من إعجاز القرآن

للأستاذ محمد أحمد الغمراوى

(تتمة ما نشر فى العدد الماضى)

نعم ! إن الله منزل القرآن ينبئنا فى كتابه العزيز أن هناك أرضين أخرى مثل أرضنا . وفرق مابين الأرض والكواكب الأخرى أن على الأرض حياة ، وإلا فالأرض أيضاً كوكب سيار كغيره من السيارات .

وأول مانجد آيات فى سورة فصلت تتعلق بالموضوع : تلك الآيات هى :

« قل أئنكم لتكفرون بالذى خلق الأرض فى يومين وتجعلون له أنداداً ؟ ذلك رب العالمين . وجعل فيها رواسى من فوقها ، وبارك فيها ، وقدّر فيها أقواتها فى أربعة أيام ، سواء للسائلين . ثم استوى إلى السماء وهى دخان فقال لها وللأرض : ائتيا طوعاً أو كرهاً : قالتا أتينا طائعين . فقضاهن سبع سموات فى يومين ، وأوحى فى كل سماء أمرها ؛ وزينا السماء الدنيا بمصابيح وحفظاً ؛ ذلك تقدير العزيز العليم ! » .

هذه الآيات الكريمة الأربع فيها فنون من الإعجاز العلمى نكتفى منها بما يتصل مباشرة بالنقطة التى نحن بصدد بحثها . وأول ما نلاحظ من ذلك أن الآية الأولى نصٌّ فى صحة ما استنبطنا من أن العالم فى آية الفاتحة ليس هو مجرد عالم الإنس والجن ، أو عالم الحيوان والنبات ، ولكن هو العالم الفلكى الذى يتبادر إلى الذهن من اللفظ . ووجه كونه نصّاً فى ذلك أن الآية والتى تليها تتناولان خلق الأرض على شطرين . ولما كان الشطر الثانى فى الآية الثانية متعلقاً بتطورات خلق الأرض الضرورية للحياة فيها فإن شطر خلقها فى الآية الأولى متعلق بتكوين أرضنا أول ما تكونت عند ميلادها ، وتكون خاتمة تلك الآية « ذلك رب العالمين » متعلقة على الأخص بالمعنى الفلكى الذى هو موضوع الآية . ومن لطيف ما ينبغى الانتباه إليه كمثل للإشارات القرآنية العلمية أن يومى الخلق المذكورين فى الآية الأولى داخلان طبعاً — فى الأربعة الأيام المذكورة فى الآية الثانية ، إشارة إلى أن طورى الخلق متداخلان كما هما فى الواقع . وهو مثل رائع للإعجاز فى الإيجاز

فإذا انتقلنا إلى الآية الثالثة وجدناها تنبئنا أن السماء عندما تم خلق الأرض كانت دخانا ، وأن السموات السبع لم يكنّ خلقن بعد ، بل كن كلهن سماء واحدة بدليل قوله تعالى فى الآية الرابعة : « فقضاهن سبع سموات فى يومين » . وإذن فقد كان هناك قبل خلق السموات السبع أرض واحدة تم خلقها ، وسماء واحدة كانت دخانا . وهذا عجيب من أسرار خلق السموات والأرض لا يعرف العلم منها إلى أن السماء كانت يوماً ما دخانا . ولا تزال كتل هائلة مما سماه الله دخاناً يشاهدها الفلكيون بمراقبهم القوية اليوم فى السماء وإن تكتّل داخلُ أكثرها نجوما ، ويسمونها سُدُماً ، ماتكتل منها وما لم يتكتل . وهذا مثل عجيب من الإعجاز العلمى للقرآن : هذه الدخانية التى كانت عليها السماء .

وواضح أن تخلق السماء إذ ذاك سموات سبعاً المشار إليه فى الآية الرابعة كان طاعة من السماء لنصيبها من الأمر : « ائتيا » إذن فما هو نصيب الأرض وقد قالتا « أتينا طائعين » ؟ هل الأرض فى قوله تعالى : « فقال لها وللأرض ائتيا طوعاً أو كرهاً » هى نفس الأرض التى نحن عليها ؟ إن الجواب المتبادر هو نعم . لكن القرآن عنع من هذا التبادر . وأول هذه القرائن وأهمها أن أرضنا هذه كان قد سبق تشكيلها ، وتم خلقها وخلق جبالها وخلق الحياة على ظهرها قبل أن يصدر الأمر ، بدليل « ثم » الترتيبية فى أول الآية الثالثة ، بعد تمام خبر خلق الأرض فى الآيتين الأوليين . والأمر أمر واحد : « ائتيا » ! فإذا كان أمرَ خلقٍ فيما يتعلق بالأرض المخاطبة . فهل يمكن أن تكون الأرض المخاطبة بذلك الأمر هى الأرض التى تم خلقها ؟ أليست هذه قرينة قوية جداً على أن الأرض فى الآية الثالثة غير الأرض فى الآية الأولى ، أى غير أرضنا هذه ؟ بلى ! وتكون أل للعهد فى الآية الأولى ، وللجنس فى الثالثة . فهل هناك قرائن أخرى على هذا الاستنتاج تؤيده وتزكيه ؟

إذا تذكرنا أن المقابلة تامة فى اللغة بين كلمتى أرض وسماء ، وكذلك هى تامة فى الآيات الثلاث الأولى حين لم يكن إلا أرض واحدة وسماء واحدة ، كان فى ذلك إشارة مغنية إلى أن السبع السموات المذكورات فى الآية الرابعة يقتضى وجودهن وجودَ سبع أرضين يقمن بإزائهن : أرض تقابل كل سماء . ولما كانت إحداهن موجودة تامة الخلق بالفعل حين صدر الأمر ، كان المخاطب المعنى بالأمر فى « ائتيا » هو الأرضين الست الأخرى المقابلة للسموات الست الجديدة : خلقهن — سبحانه — كلهن من

السماء الدخانية الأولى . وتكون أل فى لفظ الأرض فى الآية الثالثة هى للجنس كما استنتجنا .

ويزداد هذا المعنى والتخريج تأييداً فوق تأييد ، وتوضيحاً فوق توضيح ، بالآية الأخيرة من سورة الطلاق « الله الذى خلق سبع سموات ومن الأرض مثلهن ، يتنزل الأمر بينهن ، لتعلموا أن الله على كل شىء قدير ، وأن الله قد أحاط بكل شىء علما . »

إن ال فى الارض هنا هى حتما للجنس لا للعهد ، بدليل قوله تعالى « مثلهن » . والسموات السبع متعددة ، ليس فى ذلك شك فلا بد أن تكون الأرضون السبع متعددة أيضاً على نفس النحو والنمط لتتحقق المثلية المنصوص عليها فى الآية ، لا أنهن سبع طبقات فى أرضنا هذه كما فهم الناس ويفهمون . فأرضنا واحدة وليس يفهم العلم ولا الناس من لفظ الأرض إذا أطلق إلا أرضنا هذه جملة ، بجذافيرها وطبقاتها كلها . فتفسير الأرضين السبع بطبقات سبع فى هذه الأرض تفسير لا يتفق مع اللغة ، ولا العلم، ولا القرآن، ولا مع الحديث الكريم « اللهم رب السموات السبع وما أظللن ، ورب الأرضين السبع وما أقللن » لمن يدقق فى تفهم الحديث وتوجيهه على المعنى المألوف .

هذه النتيجة التى تتفق مع حرفية القرآن وحمله على الحقيقة اللغوية لا على المجاز تحل لنا وللإنسانية مشكلة السموات السبع حلا حاسما . فقد عجز الناس إلى الآن عن الوصول إلى فهم للسموات السبع ليس عليه اعتراض . قالوا إنها السيارات السبعة فظهر من السيارات عشرة ليس من بينها القمر كما كان يقول اليونان . وقالوا إنها سبعة عوالم فى السماء فكانوا كأن لم يقولوا شيئاً ، إذ ليس هناك ما يحدد معنى عوالمهم هذه ، والعوالم والأكوان أكثر من سبعة بكثير . لكن تعال الآن إلى المعنى القرآنى المتبين آنفاً ، وتذكر الإرتباط والمقابلة بين أرض . وسماء فى اللغة لفظا ومعنى ، وطبق ما تفهم من السماء بالنسبة لهذه الأرض على كل أرض من الارضين الست الاخرى ، يتحدد معنى السماء وعددها بتحدد معنى الأرض وعددها ؛ أو إذا جئت المسألة من الطرف الآخر ، يتحدد معنى الأرض وعددها بتحدد معنى السماء وعددها . « الله الذى خلق سبع سموات ومن الارض مثلهن » ! سبع سموات وسبع أرضين ، كل أرض تحدد سماءها ! وأكبر الظن أن مرقب المائتى بوصة الجديد المنتظر إتمام صنعه قريبا سيكشف مع الزمن عن بعض هذه الارضين فتتجدد بذلك آيات أخرى من آيات إعجاز القرآن .

بقيت نقطة واحدة لعل من الخير استيفاءها . أخبرنا الحق سبحانه أن السموات السبع كن قبلُ سماء دخانية واحدة وهذه الأرض مخلوقة ، فهل أخبرنا سبحانه فى القرآن شيئاً عن هذه الأرض أين كانت قبل أن تخلق ؟ نعم . فى آية الأنبياء :

« أو لم ير الذين كفروا أن السموات والأرض كانتا رتقاً ففتقناهما ؟ » ! وإذا تركنا المجاز ولزمنا الحقيقة اللغوية طبق قاعدتنا نتج حتما من هذه الآية الكريمة أن السموات والأرض كانتا شيئاً واحداً متصل الأجزاء . وهذه عجيبة كبرى من عجائب إعجاز القرآن العلمى يؤيد القرآن بها العلم الحديث فى قوله بأن الكون كله شيئاً منبثاً واحداً قبل أن توجد فيه أرض أو نجم أو سديم .

وتأمل ان شئت واعجب ماشئت من إعجاز القرآن فى التعبير عن هذا السر الحق الهائل فى الآية الكريمة آية الأنبياء ! تأمل كيف لم يسم ذلك السكون الرتق سماء إذ لم تكن أرض ، وإذ كانت السموات والأرضين شيئاً واحداً منبثاً لعله كان دون الدخان

لكننا نكتفى الآن بهذا القدر من الأمثال التوضيحية لما أشرنا اليه فى صدر هذا المقال .

إن فيها على الأقل ثلاث معجزات يقينية يستيقنها العلم الآن : تعدد العوالم فلكيا ؛ ودخانية السماء فى البدء ؛ وانفصال الأرض عن السماء بعد أن كانت متصلة بها اتصالا فى الأول .

وتبارك الله فاطر الفطرة ومنزل القرآن .

محمد أحمد الغمراوى

إلى السماء..!

للأستاذ محمد العلائي

لك الأمر لايدرى عبادك ما بيا   لك الأمر لا للناصحين ولا ليا
وهذى معاذيرى وتلك صحائف   عليها خطاياها .. وفيها اعترافيا
وفيها من الأمس الدفين وحاضرى
وفيها من الآتى وفيها ابتهاليا
وفيها تهاويل .. ومهجة شاعر   ينام بها يأساً ويصحو أمانيا
وفيها أعاجيب يكفر همها ..   ذنوبى وإن كانت جبالا رواسيا !!
ونازعنى شوق إليك وهزنى   من الغيب مايهفو إليه رجائيا
وجئت من الدنيا الأثيمة هارباً   بصفوى من أكدارها ونقائيا
وفى النفس ما أخشى ظلام ضبابه   على نور إيمانى ومسرى حيائيا
وذكرى من الماضى الشهيد وعالم   ورائى منه خدعة وأماميا !
وناديت أحلامى إليك وخافقاً   تهيب أسباب المنى والتماديا !!
أناديك فى ضعف . وأخجل أن ترى
جراحَ أمانيه ولون دمائيا

لك الأمر . أشواقى ببابك والمنى   ولى أمل ألا يطول انتظاريا !
دعوتك بالسر المغيب فى دمى   وألهمنى حبى وفاض عتابيا
ولاح نشيد جئت أشرع لحنه   فهابتك أرضى واستحتك سمائيا
وهابتك نفس لم يدع لى شبابها
من الروح ما يهدى إليك اشتياقيا
شباب أحس الدهر ثم حملته   إليك شهيداً لايحس بكائيا !!
ودارىت إلا عنك سر مماته   وموطن ذكراه ودمع رثائيا
بمدلك لا تمنح سواى مثيله !   ولا تزو عنى ماطوا اعتزازيا !!
وبارك شهيداً مات بالأمس ظامئاً   وما زال مثواه أمامك صاديا !!
منحت جميل الصبر كل مرزأ   سواى فلم يلمس هداك عزائيا
زهور على قبر الشهيد . عبيرها   أهاج ضميرى واستعاد اللياليا
وأخرج أسرارى وعاد بماضى   وكشف مابينى وبين زمانيا

لك الأمر . مالى أرتجيك فيلتوى   لسانى وأمضى بالتوسل شاكيا
ذكرتك فى نفس هداها ضلالها   إليك وعافت وحدتى وارتيابيا
ومنيت روحى من سناك بلمحة   أضمد آلامى بها وجراحيا
وأرسلته فيما لديك لعله   يعود بأسباب المحبة راضيا
وأنسى تكاليف الظلام وما اختفى
وراء تعلاتى وخلف ابتساميا !!
وأشرع ألحان السماء فلم يعد   جميلا بسمع الدهر لحن شقائيا
تعاليت لم أذكر سواك بمحنتى   ولم أرج إلا من يديك جزائيا
وفوضت عن علم إليك إرادتى   وحسبى ما أدى إليه اختياريا
ورائى آثام وخلفى خطيئة
كفاك شعورى نحوها وكفانيا !!
تهافت ظمآن الجوانح ساغباً   وأيأسنى مما سواك انتباهيا !
وأجهدنى مالا أطيق بيانه   فجئتك مشبوب الوسيلة عارياً !!

لك الأمر . شاقتنى سماؤك وانتهى   إليك بأحلام الضمير مطافيا
وأزلت آمالى وفيها ملامح   ترد أمامى ماتركت ورائيا !
يطالعنى منها زمان عرفته   بريح لياليه ولون سهاديا !!
تقلب ذكراه الدفين وماضياً   تهرب منه فى الشباب خياليا !!
أطلت مآسيه ببابك فاستمع   إليها حديثاً لم يسعه بيانيا
ضياؤك أغرى باليقين جوارحى   وفجر أعماق وأفضى بذاتيا
وألهمنى حتى تجلت مشاعرى   أذابت كيانى فى سناك معانيا !
وأفردنى حتى رأيت معالماً   تلاشى زمانى عندها ومكانيا !!
وأحسست أن الدهر لمحة خاطر
وأن امتداد الكون بعض امتداديا !!
وأن دوى الحادثات بمسمعى   رواسب حلم زارنى فى مناميا !
وأوشكت أنسى غير أن هواجساً   من الأرض نادتنى ومست كيانيا

لك الأمر . أسبابى ضعاف وخاطرى
ببابك يخشى رجعتى وانحرافيا
دعوتك ملء النفس ألا ترده   مغيظاً وألا تستعيد سؤاليا !!
ويشفع لى أنى أتيتك عاتباً   وأن لى المنبى وأجر انطوائيا !
وهذا رجائى فى حماك وهبته   لعدلك حتى تستجيب دعائيا !!

وحاشاك أن أرضى مع النفس مذهباً
بغير يقين منك يهدى شعاعيا !

كفانى أوهاماً فهب لى تميمة ... بها أتّقى نفسى وشرَّ ذكائيا !!
وبارك لجاج الأرض إلا مواضعاً ... شربن دموعى أو شهدن عثاريا
تناسيتها لولا حديث أهاجه ... تلفت أشواق وخوف ارتداديا
وجدّد لى همس الرحيل مكارها ... تولّى شجاها والجراح كما هيا
وأيامى اللاتى ذهبن وعالماً ... دفنت به عهدَ الصِّبى وشبابيا
وأودعته سراً حراماً ولم أزل ... أعود فأبكيه دموعاً غواليا

لك الأمر . هذا من يديك عدالة ... وهذا قليل فى مقام اتصاليا
أتيتك والحق الصريح يمدّنى ... إليك ولحن البشر ملء فؤاديا
وحولى من عرش الجمال ملائك ... ترف أزاهيراً وتسرى أغانيا
وفى النفس فجر من يقين وموكب ... من الخير يحدوه إليك ولائيا
وفيها رجاء فاض منك جلاله ... وآفاق نور يستحيها ضيائيا
وأحببت حتى أسكرتنى مودّتى ... وذاب يمينى رحمة وشماليا !!
وهامت بآلام الحياة وسائلى ... وفاضت على ماليس منى هباتيا
وأرسلت أنسامى عبيراً وبهجة ... لتنفح أعواد الربى والأقاحيا !!
وآمنت حتى كاد يذهب خاطرى ... وتصعد أنفاساً إليك حياتيا !
ولم يبق حرف منك إلا أسرّه ... ضميرى وأبدته إليك سماتيا !!

وزرتك ألحاناً ورجع مواهب
وأشهدت سمع الدهر فيض انسيابيا

لك الأمر آفاق تراءت لخاطرى ... وعاودنى منها دبيب شكاتيا !
وذكرنى بشر السماء منازلا ... أتيتك منها عابس الوجه داميا
أقلّب أوهامى يميناً ويسرة ... وأرفع آمالا إليك روانيا !!
يتازعنى ماض شرقت بعذبه ... وراودت فيه ما أشاب النواصيا
إذا طاف منه حول نفسى طائف ... ذكرت زمانى والسنين الخواليا
هناك وفى أرض عليها ملاعبى ... وأطياف آبائى وأغفو دياريا
وفيها تملّأتنى وراح مشاربى ... وزلات أهوائى ودمع متابيا
وأحلامى الولى وذات مواجعى ... وأطلال مأساتى ورجع بلائيا
على وطن أفنى شعورى هواجساً ... وألبسنى ثوب الشبيبة باليا !!
ولم يرع لى حق الحياة بأرضه ... ولم يرع آلائى له ووفائيا !!

بعدلك لاتمنح مشارق نوره ... حياتى ولا تمنح ثراه رفاتيا !!!

لك الأمر . ألمانى حديث أعاده ... عليك ضميرى واستحاه لسانيا !!
وأسرفت فى ذكر السماء ولما كن ... لأسرف لولا رجفة من صباحيا

وعذرىَ أن الكأس فوق مواهبى
وأن مقام الحب يشجى المآسيا !

وأن تباشير الصباح تنفست ... وفاح شذاها واستنار ضلاليا !.
ولاحت على وجه السماء بشائر ... ولاحت أغاريدى ولاحت ظلاليا
وطاف ضيائى بالمواكب رحمة ... لمن ذاق أيامى وذاق عذابيا
أرد جراحاتى عليهم مسرة ... ونار جحيمى عزة وتساميا
وأنثر أشواكى عليها أزاهراً ... وألوان يأسى حكمة وأمانيا
وأمنح أرض الظامئين مواردا ... تفجر فيهم نشوتى وسلاميا
رجاء وإيماناً وفيض محبة ... وتفتح للدنيا كنوز انفراديا !!
بعدلك مالى بعد ذلك غاية ... من العيش إلا أن تصون اتجاهيا

لك الأمر . نادت بالرحيل خواطرى
وهبت على نفسى رياح اغترابيا

وذكرنها أن الشباب جديدة ... وأن عليها من سناك هواديا !

وأن شباب الأمس واجهت غيها
على غير إيمان فكانت مهاويا !!

هى الأرض تبلونى لتبلو خطبها ... على نور إدراكى وضوء نفاذيا !!

لك الأمر . زلات الشعور تردّنى
إلى الظن والأبطال فيما أماميا !

ضميران .. هذا ملء نفسى غناؤه ... وذاك يدارى ظنّه فى غنائيا !!
لك الأمر . مالى فى وداعك باهتاً ... ومالى أخطو شاحب النفس نائيا
لك الأمر . ليست للجديد روائح ... وليس لهذا الدهر لون ولا ليا

لك الأمر . لاحت من بعيد مذاهبى
وآذن حاديها وآن ارتحاليا !!

ورفت عليها من سناك مآثر ... ورفت عليها غايتى وصلاتيا
تنسمت أمواج الرحيل وأشرقت ... علىّ أمانيه فبارك شراعيا !!

(الزقازيق — كفر الحمام) محمد العلائى

وجهة النظر الجديدة فى الحياة

للكاتب الصينى الكبير واب بود شينغ

[حديث ألقاه فى جمعية الثقافة المركزية بتشنغ كنغ]

بقلم الأســـتاذ نور ناهين

إنى لم ألق محاضرة فى مكان عام ، فى تشنغ كنغ ، منذ بضع سنين لسببين : أولهما أنه لم يكن عندى كلام أحب أن أقوله فأحاضر فيه ، لذلك أمسكت عن الـكلام ، لأستر فضيحتى عن أعين الناس . والآخر أنه لو كان عنـدى شىء من الرأى ، لاستطعت أن أنشره فى الجرائد والمجلات ، وما كنت أود أن أحتل مكانا يحتاج إليه العلماء والأدباء للتعبير عن رأيهم ... أما اليوم فقد اضطررت أن أقبل ذلك المركز حين دعتنى لجنة الثقافة المركزية ، وقد اخترت موضوع المحاضرة « وجهة النظر الجديدة فى الحياة » لعلى أسترعى انتباه السامعين .

وأبدأ كم بأن من الحق ألا أتهور فى هذه المحاضرة ، فانى لم أتعمق بحث الموضـوع ، وكل ما جمت فيه ليس إلا رأيا لا يكاد يجتمع على نفسه ولا نظام له يمسكه ؛ لـكن يخيل إلى أنى ما دمت بشراً يحيا بين أرجاء العالم ، وما دام لى شىء بسيط من الفـكر ، فمن حق أن يكون لى وجهة نظر فى الحياة فيما عدا الضروريات من أكل ونوم وعمل ، سواء أكان وجه النظر هذا عميقاً أم سطحياً . ومع هذا فانى أظنُّ أن وجهات النظر فى الحياة لا تزال تتغير دائما بتغير الأوقات من حيث التقـدم والتأخر . إذ من المستحيل أن تظل واحدة مدى الحياة ، لذلك طالما تغيرت وجهة نظرى فى الحياة وتطورت ، وأنا أرجو دائما أن يكون تطورها علامة التقدم .

وقع الشك فى قلبى من مسألتين ، حين قارنت نظم المجتمع ومستقبل الوطن بما أعرف من خلق الشخصى ومعاملتى للناس .

الأولى أنه قد مضى علينا آلاف ومئات السنين ونحن نبحث عن العفة والفضيلة والخلق الحسن ، وندرس عوائد الإنسانية والرأفة والرحمة ، منذ عهد كونفشيوس ؛ ولـكننا مع ما بذلنا من جهد فى البحث والدرس ، فقد بعدت سيرة الأمة عن القصد كل البعد ، حتى خرجنا عن كوننا أصحاب عفة وفضيلة ورحمة . إذن لا شك فى أنه لا يكفينا بحث الخلق الحسن ودراسة الفضيلة فقط فى هذا العصر .

والأخرى أننا تعودنا كلما تحدثنا فى تاريخ الشعوب أن نقول إن لنا تاريخاً مجيداً وحضارة تليدة منذ خمسة آلاف سنة . نعم ، ولا شـك فى أن لنا تاريخا حافلا طويلا وحضارة مجيدة ، وهو تاريخنا وحضارتنا حقا . ولـكن لماذا تأخرنا الآن ؟ لا شك أنه لا ينفعنا مجد أجدادنا منفردا .

بسبب هاتين المسألتين وشـكى فيهما ، تذكرت ما قال الفيلسوف « نيتشة » . « من الضرورى تقدير قيمة كل شىء من جديد . »

☆☆☆

لقد أفزعتنى مصيبة الوطن وأزمة الأمة التى أصابتنا منذ حادث [(١)] ١٨ سبتمبر جد الافزاع ، وحملتنى على أن أفـكر فيما يستحق التهذيب من خلق حسب قواعد المروءة خاصة ، ثم فيما يجب على لخدمة الوطن حسب القوانين عامة . وأخيراً رأيت أن أعرض على الناس اقتراحى فيما أسميه « خطوات المرء الثلاث » ، وهو يشير بأن لا نعمل شيئاً ، إلا (ا) لفائدتنا بدون خسارة الناس ، و (ب) لفائدتنا وفائدة الناس ، و (ج) لفائدة الناس وإن لم نستفد .

نعم ، إن الإنسان كان حيوانا أنانيا ، إذ كان يفتح فمه لشرب اللبن منذ أن ولد ، ثم يخاصم أمه على شىء من الأكل والشرب فى عهد الطفولة . ولـكن مهما يكن الأمر ، فالواجب على من بلغ سن الرشد الذى هو وقت حاجة المجتمع إلى عناية الفرد أن لا يعمل شيئا إلا حيث يستفيد بدون أن يضر الناس

---

(١) فى ١٨ سبتمبر سنة ١٩٣١ ادعى اليابانيون أن الجيوش الصينية خربت السكة الحديدية لمنشوريا الجنوبية ، والواقع أنهم هم المخربون لها ، فضربت جيوش اليابان مدينة (مكدون) بهذا السبب ، ولم يكتفوا بذلك ، بل احتلوا ولايات الصين الشمالية الثلاث ، وكونوا (منشوكو) المستقلة فى الظاهر المستعمرة فى الواقع . بذلك بدأ اضطراب السلام فى العالم .

ثم إن استفاد وأفاد فذلك خير ، أما إن أمكنه أن يضحى بنفسه وفائدتها فى سبيل فائدة المجتمع فذلك ممن بلغوا الذروة فى الفضل والتضحية .

إنا إذا ترسمنا خطوات هذا الطريق فى سبيلى مصلحة الوطن والعالم ، ضمنا ألا يعمل إنسان إلا لفائدته بدون ضرر الوطن والعالم ، أو لفائدته وفائدة الوطن والدنيا جميعا ، أو يضحى بنفسه فى سبيل الوطن والعالم ، وذلك منتهى الإيثار .

على أساس هذه القاعدة ، كنت ألقيت خطابا فى جامعة « تسين هوا » بمدينة بنغ بين ، ثم كتبت ست مقالات تحت عنوان « إلى شبان الشمال » حين وصلت إلى شنغ هاى ، بنيتها على هذه الأساس أيضا . أما من ناحيتى ، فكنت ولا أزال أتمسك بهذه المبادىء ، لتهذيب خلقى الشخصى خاصة ولأحسن معاملتى مع الناس عامة .

وفى الربيع الماضى الذى كان آخر مرحلة من مراحل حرب الدفاع المقدس ، حين بدا لنا بارق النصر ، استأنفت الجهاد فى إيقاظ أبناء وطنى ، ليعملوا جهدهم فى إشعال الروح القومية ونبذ الكراهية والتلاوم والمحاباة . وذلك لما لاحظت فى قلوب الناس من دلائل الأغلال واليأس من الحياة ، قاصداً بذلك الإيقاظ انتشال الناس من المنحدر الذى كادوا ينحدرون إليه ، ودفعهم إلى تيار جديد عاصف . ولكننى الآن قد شعرت إزاء أمنيتى تلك أن كل ما عنيت ليس كافيا .

ولماذا شعرت بعدم كفايته ؟ ذلك لأن كل ما بقى فيما أشرت إليه من المسألتين المذكورتين لا بد أن يعاد تقدير قيمته ثانية .

إنى متأكد كل التأكيد أننا لا نقدر أن نتفوق على الهنود فى بحث علوم الفلسفة . ذلك لأن فلاسفة الهنود قد بلغوا ببحوثهم أبعد حدود الخيال الجليل ، حتى كأنهم كشفوا مرج عبقر حيث يسكن الجن ، وكل هذا بدأبهم على البحث ومزاولة الزهد والطمع فى نعيم الجنة ، حتى أنكروا الحياة وعدوها من البلايا والمصائب ، ولكنهم أصبحوا من أضعف الأمم فى العالم ولا يزال وطنهم مستعمرا .

وإنى لأعتقد كل الاعتقاد ، وقد زعمنا أن لنا تاريخا فى الحضارة منذ خمسة آلاف عام ، أننا لن نقدر أن نتفوق على المصريين من حيث ذلك التاريخ ، لأن أسلافهم قد بنوا الهرم الأقدم قبل خمسة آلاف عام ، وألفوا التقويم السنوى لمعرفة أيام السنة ، قبل ستة آلاف سنة ، وكل هذا ظاهر بين ، فمن الحقيقة أن المصريين كانوا من الذين بنوا الحضارة ، ولكنهم الآن لا يزالون من أضعف الأمم ، ولا بد أن يبذلوا أقصى جهدهم للنهضة على الرغم من أن بريطانيا سمحت بالاستقلال .

أما علوم الأخلاق وفلسفة الحياة ، فقد كان أهل الصين فيها مشهورة متفوقين على غيرهم ، ولكن شعب الصين ما يزال الآن متأخراً أيضا .

وكم شعرت دائما حين بدت لى علائم الضعف ، بأن ثمة شيئا من الخلل يعبث بحضارتنا ، ولا بد أن نبحث عن منشئه الأصلى خلف دائرة الهرج الظاهر فى حضارتنا .

بحث صديقى « لين تاو تزى » فلسفة نيتشة ونقدها ، ثم بين بحثه فى مقاله « نظرى إلى نيتشة » ، ولخص مذهب الفيلسوف فى كلمتين ، وهما : « إن الابتكار يكتشف ليعطى للناس ، ولكن ذلك الإعطاء ليس شفقة بهم » . أى أن القصد من الاختراع هو انتفاع العالم ، ولم يكن المخترع رحيما بالعالم فاخترع ، إنه يجهد فكره ليستفيد ويتمتع ، ثم حين يكتفى بالمتعة ، يعرضه على الناس ، إنما كان يخترع لنفسه ، وما كان يفعل كما فعل « يسوع وبوذا » رحمة للناس وإشفاقا عليهم .

إن النشاط لب الحضارة وروحها حقا ، إذ أنه لا تبقى حضارة إلا بالاختراع ، ولا يعيش ابن آدم ولا ينمو إلا والاختراع يقدمه من جهاته جميعا .

ومن يوم أن عرفت « أن الابتكار لنفع الناس ، ولكن انتفاع الناس ليس ناتجاً عن رحمة المخترع بهم » ، اتسع نطاق فكرى أو امتدت مسافته ، فتمكنت من معرفة بعض أساليب الحياة . خذوا منها مثلا ، فالشمس لو أضاءت ونشرت أشعتها وحرارتها ، فسرت الحياة فى الكائنات ونما النبات وشب الحيوان ، ثم توجهنا إلى الشمس وسألناها : « أيتها الشمس ! هل أنت أشرقت ونشرت الحرارة من أجل الدنيا وما فيها ؟ » فقد تجيبنا الشمس مرتبكة حائرة : « لا أدرى ، لا أدرى ! » وإذا نحن كررنا السؤال وأبينا إلا أن نعرف السبب فى ضيائها ،

فربما أجابتنا مضطرة « إنى أنشر الحرارة لأنى أريد الحرارة ولا بد لى منها ! » تلك إحدى نظريات الحياة وأساليبها عرضتها عليكم أيها الكرام ، وهى قانون من قوانين الحياة التى تندفع إلى الأمام بدون تردد ، لذلك أعتقد أن الاختراع سيستمر كما فهمت من نظرية الشمس والحياة . وهذه النظرية وإن كانت من أنواع الفلسفة ، إلا أنها ليست مما يتفق مع مذهب « نيتشة » بل من فلسفة أعلى من فلسفة نيتشة .

لست أريد الغموض والخفاء بالبحث فى الفلسفة والنطق بها فى حديثى عن نظرية الشمس ، كلا ، فانه لا غموض فى الأمر ولا خفاء ؛ لأن ما قصدت من ذلك هو أن تكون وجهة نظرنا فى الحياة متجاوزة نطاق المتاع الشخصى إلى قوانين السماء ، المراد بالسماء ما وراء الطبيعة ، بل حقيقة الطبيعة ، وبكلام أكثر صراحة ينبغى أن تكون وجهة نظرنا فى الحياة متعدية تلك الحدود التى يعامل بها بعض الناس بعضا ، مسيطرة على الطبائع والكفايات ، مستعملة إياها فى الابتكار للحياة ، وهى ما دامت قد استخدمتها على ذلك الأساس فهى عين الفضيلة ولب السعادة للانسان ، وليست تلك الأمور فى حاجة إلى صناعة وغاية ، بل هى داخلة فى نطاق منافع الحياة عن طريق الابتكار .

إن شدة العناية بالمتاع الشخصى والتجاوز عن مسايرة قانون الطبيعة هو الذى كلف حضارة الصين الخسارة والضرر . ولا شك أن أكثر العلوم العالية الصينية ، كان من فلسفة الحياة وأكثر علمائنا قد بحث علاقات الناس ببعض بحثاً عميقاً ظاهر العمق . خذ مثلا : ما يقال من أن كونفشيوس تشرف بزيارة الكاهن « لووتز » طالباً أدباً ؛ وكان كونفشيوس لا يزال شابا ناضج العقل ذا عزم وطموح ، فقال له « لووتز » بوقار الكهنة : « أترك ما فى نفسك من العناد والكبر ، ثم امح من نفسك ذلك الشره الذى غلب عليك . » يعنى ألا تكون مضطرم الفكر متبرم القسمات ؛ وألا تبقى فى قلبك شيئا من حب الشهرة والطموح . ثم قال : « إن التاجر الغنى هو الذى يخزن سلعه فى أعماق متجره ، حتى كأن دكانه خال من البضائع ؛ وإن الإنسان الكامل من يكون فى عفته الموفورة كالأحمق . »

فأولى هاتين الكلمتين تعلم الإنسان أن يكون تاجراً خائنا ، يدخر بضائعه لينتهز فرصة للربح الفاحش ، وثانيتهما تعلم الناس أن يتحامقوا عمداً . إلا أن كونفشيوس احترم « لووتز » ورأيه كل الاحترام ، فانصرف وقال لتلاميذه : « إنى تشرفت اليوم بمقابلة السيد الكاهن « لووتز » ، وما هو إلا تنين ! »

وأعظم الظن أن كونفشيوس قد أخذ بكره تلميذه « تزلو » الشديد الجسور بعد أن أدبه ، وكان دائما يشتمه قائلا : « يا للمزاج الهمجى ! يا للطبع البربرى ! » ثم أخذ تلميذه الأستاذ « تزتوا » يتاجر بعد ذلك ، فكسب كسبا جزيلا . فلا جدال أن فلسفة « لووتز » فلسفة ماكرة . وأما فلسفة « جواتز » ، فقد كانت فلسفة الجبن والضعف ، لأنها ستار يحتمى به صاحبه من ضرر الملوك الجبابرة من جهة ، وطريق يدرج فيه من جهة أخرى .

ولا جدال فى أن الأمبراطورين « ياو » و « شون » كانا من المثل العليا للعفة وحسن الخلق ، فلذلك دأب الصينيون على ذكر اسميهما فى معرض أمثال العفة وحسن الخلق . ولقد كان « شون » يعتبر الدنيا كحذاء عتيق لما كان أمبراطوراً ، وكان يبكى بكاء مراً ، ويستغفر الله من قسوة أبيه « قوسى » ، حتى هم أن يفر من الدنيا . وفوق ذلك كان دائما يهتم بشأن أخيه « شينغ » التعس الشرير لقلبه الحنون ، فكان يسر لسرور أخيه ، ويحزن لحزنه أيضا : وإذا كانت شئون النبى أو الأمبراطور لم تخرج عن حيز المتاع الشخصى هكذا ، فما شأن من قلت منزلتهم عن النبى والأمبراطور ؟

قال لى الأستاذ « فوماوجيغ » إنه حاول أن يكتب مقالا ، يتحدث فيه عن شئون موظفى الصين . وقال : إن الصينيين تعودوا أن يقرنوا ذكر الوزراء بذكر السرايا والمحظيات ، بل إنهم يعدونهم طبقة واحدة من الناس ، حتى أصبحت السرايا والمحظيات يتخذن أسلوب الوزراء والموظفين فى الحديث ، وينظرن إلى الحياة نظرتهم تماما ، حيث يتملقون أسيادهم رجاء رضاهم وسرورهم ومحبتهم لهم . ويعودون على زملائهم بالكراهة والخصام والحسد ، ثم يظلمون من هم أقل منهم بسطوتهم النافذة كل الظلم .

قلت له : ما أصدق ماقلت ، إلا أننى أخشى ألا تسمح سلطة الرقابة الجديدة بنشر مقالك هذا ، ولست ضامنا لك قط ذلك .

البقية فى العدد القادم

نور ناهيبن

تعقيبات

كلمات تموت :

هى كلمات رددت ، فتطلعت إلى الحياة ، وتطلبت غذاءها من تحقيق ما تدل عليه ، فعللت ومنيت ، وعاشت زمنا على التعلات والأمانى ، حتى أصابها الشحوب والهزال من طول الحرمان ، وها هى ذى مشفية على الموت .

تلك هى كلمات « محاربة الأعداء الثلاثة ، العدالة الاجتماعية ، رفع مستوى المعيشة ، إصلاح أداة الحكم ، مشروعات السنوات الخمس » وأمثال هذه الكلمات التى توضع فى البرامج فتكون لها حلية وزينة ، ثم يفتر الحماس لها فتأخذ مكانها على (الرفوف) .

وحياة هذه الكلمات بحياة مدلولاتها ، فما مدى هذه الحياة عندنا ؟ يجيب عن ذلك الأستاذ صريت غالى فى مقال له بالأهرام عنوانه « الحساب الختامى لسنة ١٩٤٦ القومية » قال فى مطلعه :

« لو جرت العادة على إعداد تقرير سنوى عن شئون الأمة والوطن فكيف يكون التقرير عن سنة ١٩٤٦ ؟ أندون فيه نجاحا أحرزناه فى نيل الأهداف القومية ، أو علاجا قدمناه لمشكلة الموظفين والإدارة ، أو معركة كسبناها ضد الأعداء الثلاثة التى تفتك بالشعب ، أو مشروعا اقتصاديا أو إصلاحا اجتماعيا حققناه لرفع مستوى المعيشة ؟ الواقع المؤلم أن التقرير لا بد أن يكون خاليا من كل هذا . »

ونحن جميعا نلمس مصداق هذا الكلام الصحيح ، فالأعداء الثلاثة لا تزال قوية منيعة الجانب ، الجهل لم ينل منه تجاذب الاختصاص وتبادل الموظفين بين الوزارات ، والمرض لا تزال ترى فيضه على أبواب المستشفيات وأفنيتها صفوفا متدافعة ، لا يرده جشع المرض ولا جفاء الطبيب ... والفقر ما فتىء بعد الجهل وبين المرض ، ومستوى المعيشة هو هو ، والعدالة الاجتماعية أيضا هى هى ... وأداة الحكم ما تنفك فى بطئها ووساطاتها وسائر فسادها ، والسنوات الخمس لست أدرى متى تبدأ ... أمن وقت انتهاء الحرب ؟ وهل بدىء فى مشروعاتها ؟ أم لا مبدأ لها ولا نهاية ... ؟

وقد ظلت تلك الكلمات تتراقص فى أحلام الناس وتهدهد آمالهم ، حتى كادت تسقط من فرط الإعياء . وليس من المستحسن أن تموت وفى مقدورنا إحياؤها ، وفى إحيائها حياتنا التى ينتفى فيها السخط والانحراف ، وتتم لنا فيها مقومات الأمة التى تدفع بها إلى أهدافها لا يقف أحد فى سبيلها .

المعنى الدينى :

نشرت جريدة المصرى أن البدراوى باشا يريد أن يقوم بنفقات مشروع إنارة مسجد الرسول عليه السلام وكسوة المقام النبوى الشريف . فبعث اسماعيل صدقى باشا إلى (المصرى) بكتاب يقول فيه إنه يسعى منذ زمن للترخيص له بكسوة المقام النبوى الشريف ، ويرجو البدراوى باشا أن يكتفى بالإنارة ويترك له الكسوة . ولم نعلم بعد ذلك ماذا تم بين (المليونيرين) الكبيرين فى هذا الموضوع ، وإن كنت أود ألا يقبل البدراوى باشا رجاء صدقى باشا ويتمسك بالإنارة والكسوة كلتيهما ، ولا أدع صدقى باشا حائراً لا يدرى كيف ينفق ما أعد للكسوة من مال فيما يعوضه ما يفوته من الثواب ، فهو رجل غنى ومؤمن ، وثمة مؤمنون كثيرون فقراء يحتاجون إلى أن يكون معهم كالبنيان المرصوص يشد بعضه بعضا ، والوسائل إلى ذلك كثيرة .

هذا وقد تحدث الأستاذ الأكبر شيخ الجامع الأزهر إلى محرر مجلة (الأمانة) فى رسالة الأزهر ، فقال إنها تقوم على فهم « المعنى الدينى الحقيقى » وقد أصاب فضيلته المحز ، فما أحوجنا إلى فهم حقيقة الدين والقصد إلى لبابه وجوهره ؛ وإنى – على ما أفهم من حقيقة ديننا – أعتقد أن تواد المؤمنين وتراحمهم ، كأن يساعد الغنى الفقير ، أرضى لصاحب المقام الشريف ، وأوفى إلى تلبية دعوته ، وأوفق للعمل بمقتضى رسالته ، وأدعى إلى نيل الثواب .

وعلى ذلك جرى أسلافنا الذين كانوا أقرب منا إلى عهد النبوة وأكثر فهما لروح الإسلام. ومن الملاحظ أن الاهتمام بالمظاهر والشكليات كثر أو وجد فى العصور المتأخرة، حتى كان الحكام الذين أمعنوا فى أخذ أموال الناس بالباطل، ثم يرى أحدهم أنه ما عليه من ذلك بأس ما دام يمحو سيئاته ببناء مسجد أو إنشاء (تكية). والله أعلم.

«كتب وشخصيات»:

عقب الأستاذ سيد قطب على ما كتبته فى الرسالة عن كتابه «كتب وشخصيات» فبين وجهة نظره إزاء ما ارتأيته فى مسائل تضمنها الكتاب، وقد كنت أعتبر الأمر منتهيا بذلك — على اختلاف وجهة النظر بيننا فى تلك المسائل — لولا ما جاء فى رده خاصاً بنقده لتيمور، فقد رأيت فيه ما يحتاج إلى هذه الكلمة.

قال: «ومما أخطأه الإنصاف فيه نقده لتيمور إذ يصف فنه بالفتور وبأنه يؤثر اللطف والدعة على الانفعال والحيوية» ولم آت بهذا من عندى، بل أتيت به من «كتب وشخصيات» (ص ١٨٩) حيث يقول الأستاذ فى أقصوصتين من أقاصيص تيمور «وكلتاهما تنبعان من قلب إنسان ولكنه إنسان يؤثر اللطف والدعة على الانفعال والحيوية، فضحكته ابتسامة فاترة، وغضبته سحابة باهتة، ووثبته خطوة وانية، وإشارته إيماءة رتيبة، ولكنه على أية حال إنسان.

«هذه الظلال الإنسانية التى تبدو فى بعض أعمال تيمور — مع شىء من الشاعرية اللطيفة فى بعض الأحيان — هى وحدها التى تجعل الناقد لا يستطيع أن يغفل فن تيمور، وهو يتحدث عن الأقصوصة، مهما كان فى هذا الفن من فتور ...»

أفليس هذا يا أستاذ سيد من «حقيقة رأيك» فتقول «إن الأستاذ لم ينقل حقيقة رأيى» وتوهم بذلك أننى «أخطأنى الإنصاف» فى عرض رأيك؟! وإن كنت تقصد أنى لم آت بما أتيت به فى الرد من كتابك على أنه مآخذ أساسية، فإن المجال لم يكن يتسع لذلك، وقد اكتفيت بما أتيت به من رأيك فى تيمور لأن اتجاهات المآخذ الأخرى تجتمع عنده، فتماثيل الشمع مثلا التى مثلت بها شخوص تيمور ... أى شىء هى إن لم تكن الفتور وعدم الانفعال والحيوية؟

أما ما قلته غير ذلك فى هذا الموضوع فإنما أقصد به دفع استنكار لون من الأدب لخلوه من خصائص لون آخر، والأدب مختلف ألوانه. وقد نطقت به وليس بينى وبين تيمور أسباب المودة الآسرة التى قال الأستاذ سيد قطب إنه يتمتع بها، والحمد لله على كل حال.

أبو العباس

الأدب والفن في أسبوع

المجمع اللغوي:

في مستهل الأسبوع المنصرم افتتح مجمع فؤاد الأول للغة العربية دورته الثالثة عشرة بمؤتمر عام جرياً على عادته في افتتاح كل دورة، وقد ألقيت في المؤتمر عدة كلمات وأحاديث تتصل بمهمة المجمع وتتعلق برسالته في خدمة اللغة العربية والنهوض بها.

فتحدث الدكتور عبد الرزاق السنهوري باشا وزير المعارف في كلمة الافتتاح عن المهمة التي يضطلع بها المجمع والتي يصح أن تكون هدفه وغايته فقال: «إن مجمعنا الموقر هو حارس اللغة العربية والقائم عليها، يحرسها ليحافظ على سلامتها، ويقوم عليها ليجعلها ملائمة لحاجات الحياة في عصرنا الحاضر ... وإنني أعتقد أن مهمة المجامع اللغوية ليست هي الخلق والإبداع، بل هي الاثبات والتسجيل، وعندي أن أعظم المجامع اللغوية نجاحاً هو أكثرها تواضعاً وأقلها ابتكاراً، هو ذلك المجمع الذي يتجنب ما أمكن أن يبتدع لفظاً جديداً أو أن يحيي كلمة ميتة، وإنما يقتصر ما استطاع على إثبات لفظ حي، فهو إنما يقف من الألفاظ عند القائم منها الذي تجري به الألسن ويقع به التفاهم، ثم يعمد بعد المقارنة والمفاضلة والترجيح إلى تسجيل ما اختاره من ذلك، يسجله كما هو أو مع تحوير بسيط قد تقتضيه صناعة اللغة، وليست مهمة التسجيل هذه بالمهمة اليسيرة وإن بدت كذلك في ظاهرها، فهي تقتضي الذوق السليم، والحس المرهف، واليقظة البالغة ...».

ثم ألقى الدكتور فارس نمر باشا الرئيس النائب كلمة قال فيها: «ولما كان في طليعة أهداف المجمع أن يكون جهده لخير اللغة عاماً بين أبناء اللغة في مختلف البلاد العربية وسواها فقد حرص بمعونة أعضائه في الخارج على أن يعرض أعماله على الهيئات العلمية وجمهرة العلماء في الشام والعراق وغيرهما وهو يتلقى ملاحظاتهم ويدرسها، ومما يدل على أن هذا الغرض قد بدأ يتحقق منه قدر جدير بالاطمئنان أن وزارة العدلية في الحكومة العراقية حين وضعت مشروع قانونها المدني ضمنته بعض ما أقر المجمع من مصطلحات هذا القانون وقبلته في كثير من مواده ونشرت كتيباً خاصاً بما وضع المجمع من مصطلحات القانون المدني ..».

وتحدث من بعده الدكتور منصور فهمي كاتب سر المجمع عن أعمال المجمع ولجانه في الدورة الماضية وما استعد به للدورة الحاضرة، وقد عرض في حديثه لصلة المجمع بالحياة العامة فقال: «فأهل العلم والأدب يتصلون بالمجمع ويغتبطون بجهده المشكور، وأهل الصناعة والفن يقدرون ما يصيبهم من عمله الوفور، حتى أهل الفكاهة والدعابة فلرصيدهم على حساب مجمعنا لطيف الفكاهات وطريف التندرات، فالمجمع إذن يتصل بالحياة العامة على اختلاف ألوانها، وله أن يغتبط حين يشهد انتفاع الجادين بجهوده، كما أنه لا يضيره أن يتنادر الظرفاء المتفكهون على حسابه، ولعلنا لا ننسى قصة الشاطر والمشطور، وحكاية الأرزيز والرعوور ...».

وفي النهاية أشار الأستاذ إلى أن مجلة المجمع ستعود للظهور عن قريب، وأن المجمع سيستأنف العمل في معجم فيشر بعد أن انقطع العمل فيه منذ قيام الحرب الماضية.

ثم ألقى الدكتور طه حسين بك بحثاً ضافياً قيماً موضوعه «فن من الشعر العربي يتطور بأعين التاريخ»، وليس هذا الفن إلا الرجز الذي ظلمه علماء الشعر وسموه حمار الشعراء، وقد عرض الدكتور الباحث لنشأة هذا الفن، وتاريخه، وتطوره، كما عرض لذكر أعلامه والمبرزين فيه وما كانوا يؤثرون في تعابيرهم وفي تناول موضوعاتهم، وبعد أن استوفى نواحي البحث أهاب بالمجمع ورجاله أن يقرأوا هذا الفن من الشعر وأن يمنوا بدراسته فإنهم سيجدون فيها كنزاً للغة يمكن الانتفاع به واستخدامه في النهوض بالعربية وتوسيع مادتها ...

وألقى بعد ذلك الأستاذ محمد كرد علي بك بحثاً موضوعه «تطور الألفاظ والتراكيب والمعاني»، فأشار إلى عناية العلماء السابقين بهذه الناحية، وما كان من بالغ حرصهم في تحرير اللغة ورعاية التراكيب العربية إبان نهضتهم العلمية، ثم تحدث عن

صنيع الكتاب والمترجين فى هذا العصر وما يجلونه من التراكيب الأعجمية والتعابير المخالفة لدستور العربية وأرجع ذلك إلى عجلة كتاب الصحافة حيث لا يجدون وقتاً للتروى والتفكير ثم أشار بما يجب من استغلال الكنوز القديمة التى حفظها لنا القدماء فى هذا الباب .

وتحدث أخيراً الأستاذ « ماسنيون » نيابة عن إخوانه المستشرقين ، فتكلم عن خصائص المعجم العربى فقال : « لقد ألزمنا الطلاب فى لجنة تخريج الأساتذة باستعمال المعجمات العربية المحضة كالمنجد وأقرب الموارد والقاموس المحيط واللسان والتاج وبذلك اضطروا أن يسبحوا فى البحر المحيط ومحيط المحيط ولا سفينة لنجاتهم من هذه المخاطر إلا بالالتجاء إلى معجم لا أجد الآن منه نموذجاً كاملا وإن كنت أجد صورة ناقصة منه فى المخصص لابن سيده وتهذيب الألفاظ لابن السكيت والألفاظ الكتابية للهمذانى وجواهر الألفاظ لقدامة ، ولهذا النوع من المعاجم مستقبل عظيم ونحن إليه فى حاجة ملحة لتخريج أساتذة العربية فى الخارج . »

وكانت كلمة الأستاذ « ماسنيون » ختام المؤتمر .

الأب أنستاس الكرملى :

نعى إلى أبناء الضاد منذ أيام العالم اللغوى الحجة المرحوم الأب أنستاس الكرملى صاحب مجلة « العرب » وعضو مجمع فؤاد الأول للغة العربية .

ومكانة الأب الكرملى غير منكورة ولا خافية ، فقد أمضى حياته الطويلة باحثاً متقصياً موفراً كل جهده ونشاطه لخدمة العربية وفقهها والتوسع بمادتها ، وكانت له فى هذا جولات واسعة النطاق ، ومباحثات قوية عنيفة ، وكانت للأب أنستاس نظريات فى أصول العربية واشتقاقاتها ، وكان له فى ذلك اتجاه يناقشه فيه غيره من اللغويين ولكنها على أى حال نظريات تشهد بالجهد والتبحر فى فهم أسرار العربية والتمكن من فقه اللغات الأخرى .

ولقد كان رحمه الله طول حياته أوفى ما يكون نشاطا وهمة فى الدراسة والإنتاج ، وكان مناضلا من الطراز الأول فلا يسكت على مناقشة ولا يتغاضى على خطأ ، فلا شك أن فقده جاء خسارة للعربية ، وأن نعيه قد شق على زملائه خاصة وعلى أبناء الضاد عامة ، ولعلنا نجد من فراغ النطاق ما نوفيه به حقه فى ترجمة حياته وشرح نظرياته .

رحمه الله رحمة واسعة وعوض العربية فيه خيراً .

حروف عربية جديدة :

تحدثت الأنباء الواردة من « نيويورك » بأن السيد نصرى خطار قد ابتدع طرازاً جديداً من الحروف العربية ، ووضع لهذه الحروف قواعد لاستعمالها فى الطباعة والآلات الكاتبة ، وأن شركة الآلات الصناعية قد قررت استعمالها فعلا فى آلاتها الكاتبة .

وقد تحدث الأستاذ الخطار نفسه عن مميزات هذه الحروف فقال : إنها ترجع إلى تسهيل القراءة على المبتدىء ، والاقتصاد العظيم فى تكاليف الطبع ، وتصغير الكتابة دون الاخلال بشرط الوضوح .

ومن المعروف أن مسألة الحروف العربية مثار ضجة كبيرة فى دوائر المجمع اللغوى منذ عام ، وقد وضعت فى ذلك رسائل وكتب ، ومن قبل كانت هذه المسألة مثار مناقشة طويلة ومجال اقتراحات متعددة من علماء العربية وخاصة من المستشرقين . فمنهم من يريد أن يختصر المسألة من أقرب طريق ، فيقترح استعمال الحروف اللاتينية مكان العربية دفعة واحدة ، وفيهم من يقترح تحوير الحروف العربية وتهذيبها حتى تفى بالحاجة .

والطريقة التى آثرها السيد الخطار هى تحوير الحروف العربية إلى ما يشبه اللاتينية فى الشكل وكتابتها منفصلة ، ومن المعروف أن الحروف العربية فى الخط الكوفى وفى الخط النبطى ، كانت تكتب منفصلة ، فطريقة الانفصال قديمة ، وطبيعة الحروف العربية بشكلها الراهن لا تستعصى على الانفصال ، فلا ندرى لماذا آثر الأستاذ الخطار ذلك التحوير فيها إلى ما يشبه الحروف اللاتينية ، وهو تحوير ستكون المشقة به أكثر من الفائدة منه .

الواقع أن المسألة ليست مسألة تشابك الحروف وانفصالها ، وليس بنا من حاجة إلى ذلك التحوير فى هيئة الحروف التى ألفناها واعتادتها أنظارنا ، وإنما العناء يأتى من قواعد الكتابة العربية وتعقدها فى استعمال الهمزة والألف اللينة وغير ذلك مما يضجر

علماء العربية أنفسهم ، فهلا تكاتف علماء العربية على تذليل هذه المسألة فإن ذلك يكون أجدى وأنفع ؟ !

هل استفاد الأدب من الحرب ؟

هذا موضوع مناظرة ، أقامتها جماعة الفكر العربي في الأسبوع الماضي ، وأيد الرأي فيها الدكتور زكي مبارك والآنسة روحية القليني المتخرجة في كلية الآداب وعارضه الأستاذ علي الجندي والآنسة زينب عبد الحميد .

وموضوع المناظرة جدير بالبحث والدرس ، لأنه يمس ناحية كان لها أثرها الظاهر والباطن في الأدب وفي الاتجاه الفكري ، ولكن تبادل الكلام بين المتناظرين جرى على الشأن الدارج في مناظراتنا ومحاضراتنا وهو حب الغلبة ، والتأثير على الجماهير بالعبارات الضخمة والكلمات الرنانة والنوادر الفكاهية . ومن ثم نستطيع أن نقول إن هذه المناظرة لم تصل إلى الحقيقة في الموضوع ، والواقع أن الوصول إلى الحقيقة في هذا الموضوع يقتضي بحثاً للعوامل النفسية والاتجاهات الفكرية التي كانت نتيجة للحرب وللظروف التي فرضتها على المجتمع وهذا كله أعمق من أن تكشف عنه مناظرة كلامية في ناد .

المواضع والأمكنة في المعلقات :

تنشر جريدة « البلاد السعودية » بحثاً مسلسلا للأستاذ محمد بن بلهيد يحقق فيه أسماء المواضع والأمكنة في المعلقات ، ويدل على مواقعها القديمة وما صار لها من الأسماء الحديثة .

وهذا بحث جليل مفيد ، يحتاج إليه أبناء العربية في دراسة الشعر الجاهلي . ومن الواجب أن يعمم هذا البحث في جميع الأقطار العربية وأن يحرر تحريراً علمياً ليرجع إليه الباحثون ، فقد درجت الجامعات والمعاهد في دراسة الشعر الجاهلي على الاكتفاء بالإشارة إلى المواضع والأمكنة في ذلك الشعر بأنها « أسماء أمكنة » وكفى ، ومن المعروف أن الأمكنة لم تزل في مكانها ، وإن كانت أسماؤها قد تغيرت ، فمن الواجب أن يكون بين يدي الباحثين تعريف لتلك الأمكنة في مواقعها وأسمائها الحديثة .

وبهذه المناسبة نقول إن أبناء العربية يجهلون مواقع البلاد العربية ولا يتحققون من أسمائها الحديثة ومعالمها الظاهرة على حين أن الرحالة الأجانب قد رادوا هذه الأماكن وقاموا بتحقيقها ، وألفوا عنها الكتب والبحوث الضافية ، ومن الأسف أن كثيراً من أبناء العربية يرجعون إلى تلك الكتب والبحوث فينقلون الأماكن والأسماء عنها محرفة ، مما يؤدي إلى الخلط وتوسيع الشقة في التضليل .

الفن الروسي :

تهتم الفوضية الروسية في القاهرة بتعريف المصريين بالفن الروسي وإطلاعهم على نماذجه ولوحاته ، وقد سبق أن أقامت أيام الحرب معرضاً بجمعية المهندسين عرضت فيه لوحات فنية لمشاهير الفنانين الروسيين تمثل المواقع الحربية والقواد البارزين في الجيش الأحمر

وأخيراً أقامت الفوضية معرضاً بمدارس الليسيه عرضت فيه رسوماً وصوراً للتماثيل التذكارية ومعالم الثقافة والعمارة في الاتحاد السوفيتي كما عرضت مجموعة فنية للحيوانات البرية والبحرية استلفتت الأنظار وحازت التقدير والإعجاب .

وحسناً فعلت الفوضية فإن المصريين أشد ما يكونون حاجة إلى التعرف بالفن الروسي ، وخاصة بعد أن اتجهت مصر إلى الأدب الروسي وأقبل الأدباء على نقل روائعه إلى جانب ما ينقلون من روائع الأدب العالمي .

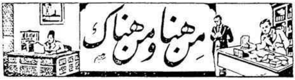
الشاعر الدباغ :

أقيمت أخيراً في يافا حفلة تأبين المرحوم الشاعر إبراهيم الدباغ ولقد كانت يافا موطن الدباغ مولداً ، وهي موطن أسرته وذويه ، ولكنه وفد على مصر في صدر شبابه لطلب العلم ، وبين ربوعها تفتحت عبقريته ونضجت شاعريته ، وقد آثرها بالإقامة إلى آخر حياته ، وفي أرضها ووري جثمانه .

أجل ، لقد عاش الدباغ لمصر بشعره وفنه ، وفيها غنى بمقطوعاته وهزج بقصائده ، وكانت له صلات وثيقة برجال الأدب والصحافة ، وجولات واسعة في الأندية والمحافل ، ثم ألمت به محنة المرض المعضل فاعتكف في مسكنه ، ثم وافاه الموت ، فنسي كما ينسى كل شيء في مصر ! !

ليت شعري أين أصدقاء الدباغ في مصر ، وأين أحباؤه وأصفياؤه ، أين الذين منحهم فنه وشعره مديحاً وإشادة نضنوا عليه حتى بحفلة تأبين في مصر دلالة وفاء وحفظ للجميل وتقدير للأدب والفن ؟ !

الجاحظ



أثر أدبي قديم :

نشرت مجلة « الطرائف الأدبية » الفرنسية القصة التالية .

فى يوم من أيام « نيسان » عام ١٩٢٨ عـثر فلاح بمنطقة رأس شمرة الواقعة على الساحل السورى تجاه قبرص على عدة قطع وأوان خزفية جميلة ، فأرسل حاكم اللاذقية إلى المفوضية الفرنسية يخبرها بهذا الكشف .

ودلت تحريات لجنة الآثار التى تولت بحث الموضوع على أن القطع والأوانى التى عثر عليها الفلاح وجدت فى مدفن ليس له شبيه فى سورية ، وهو يشبه مدافن القرن الثانى عشر قبل الميلاد التى اكتشفت على ساحل قبرص . فقررت أكاديمية الآثار القيام بالتنقيب فى هذه المنطقة ، وانتدبت لذلك بعثة بدأت العمل فى آذار عام ١٩٢٩ ، واستمرت تباشر البحث والتنقيب حوالى عشر سنين .

وأسفرت دراسات البعثة وتنقيباتها عن حقيقة تاريخية كانت مجهولة ، وهى أن مدينة عظيمة قامت فى منطقة رأس شمرة منذ القرن العشرين قبل الميلاد ، وقد استمرت هذه المدينة حتى القرن الحادى عشر حيث قضى عليها أقوام من الغزاة الخارجين

ومن أهم ما عثرت عليه البعثة المنقبة بقايا مكتبة مؤلفة من ألواح من الفخار على نحو مكاتب بابل وقد نقشت على هذه الألواح رموز وكتابات تبلغ الثلاثين عدداً ، ولم يعثر على ترجمة لهذه اللغات وقد تعذر فهمها وفك رموزها لأنها تنتمى إلى لغة غير معروفة بين اللغات الأثرية ، ولكن بعد مقارنات ودراسات تبين أنها لغة قريبة من العبرية ، وأنها أقدم بنحو عشرة قرون من سائر الكتابات الفينيقية التى اكتشفت إلى الآن .

وقد استطاع رجال الآثار أن يميزوا من تلك اللوحات الكتابية ثلاثة آلاف بيت من الشعر الذى يقوم موضوعه على الملاحم والأساطير ويرجع تاريخها إلى القرن الرابع عشر قبل الميلاد ، وقد وقع عليها كلها باسم « إيليملك » .

هذا مجمل القصة التى روتها مجلة « الطرائف الأدبية » الفرنسية ، وهى قصة كشف أدبى سيكون له أثره فى تاريخ الأدب ، وعند ما تترجم هذه الأشعار إلى لغة حديثة يمكن لمؤرخى الأدب القديم أن يصححوا كثيراً من الأحكام فى ضوء هذا الكشف الجديد .

العاقل لا يعدم حيلة :

فى (شرح النهج) لابن أبى الحديد :

قال أبو عثمان (الجاحظ) حدثنى أبو عبيد الله الأفوه – وما كنت أقدم عليه فى زمانه من مشايخ المعتزلة إلا القليل – قال : كنت ألقى من الذر والنمل فى الرطب عندى وفى الطعام عنتاً كثيراً ، فاتخذت لطعامى منملة[1] ، وقيرتها وصببت فى خندقها الماء ، ووضعت سلة الطعام على رأسها ، فغبرت[2] أياماً أكشف رأس السلة بعد ذلك وفيها ذر كثير ، ووجدت الماء فى الخندق على حاله ، فقلت عسى أن يكون بعض الصبيان قد أنزلها وأكل مما فيها ، وطال مكثها فى الأرض وقد دخلها الذر ثم أعيدت على تلك الحال ، وتكلمت فى ذلك وعرفت الحال فيه ، فعرفت البراءة فى عذرهم والصدق فى خبرهم ، فاشتد عجبى ، وذهبت بى الظنون والخواطر كل مذهب ، فعزمت على أن أرصدها وأحرسها وأتثبت فى أمرى فإذا هى بعد أن رامت الخندق فامتنع عليها تركته جانباً وصعدت[3] فى الحائط ، ثم مرت على جذع فلما صارت محاذية للسلة أرسلت نفسها . فقلت فى نفسى : انظر كيف اهتدت إلى هذه الحيلة ولم تعلم أنها تبقى محصورة ثم قلت : وما عليها أن تبقى محصورة بل أى حصار على ذرة وقد وجدت ما تشتهى

(السهمى)

---

(١) فى مجلة المجمع اللغوى فى القاهرة . ج ٢ ص ١١٠ : وافق المجمع العرف الشائع فى إطلاق هذه الكلمة (النملية garde—manger) على ما يحفظ فيه الطعام من النمل والذباب ونحوهما .

قلت : قالتها العربية منذ أيام أبى عثمان ، وربما كانت قبله ...

(٢) غبر — بالغين لا بالعين : مكث ، بقى .

(٣) صعد فى السلم وفى الدرجة صعودا ، وصعد فى الجبل وعليه تصعيد كأصعد إصعادا ولم يسمع صعد فيه أى كفرح (التاج) وصعد فى الجبل من باب تعب لغة قليلة (المصباح) قرأ الحسن إذ تصعدون جبل الصعود فى الجبل كالصعود فى السلم ، وقال ابن الأعرابى : صعد فى الجبل واستشهد بقوله تعالى : إليه يصعد الكلم الطيب (التاج) .

رفاهية العلماء :

جاء في نبأ من موسكو أن الحكومة السوفيتية ستقوم ببناء منازل في ضواحي المدن الكبيرة لأعضاء أكاديمية العلوم في روسيا ، وسيتألف كل منزل من حجرة للاستقبال والجلوس وحجرة لتناول الطعام ، ومكتبة وحجرة للنوم في الطابق الأرضي ومطبخ ومخزن للطعام وحمام في مؤخر المنزل ، وغرفتين أخريين تواجههما شرفة واسعة ، وسيكون لكل منزل حديقة خلفية وحوش متسع ، وقطعة أرض مجاورة تزرع فاكهة وأزهاراً ، ويبنى فيها غرفتان للسائق والميكانيكي الذي يتعهد السيارة بالرعاية ومخزن للأخشاب والوقود وكابينة صيفية وحظيرة المواشي .

ويقول النبأ إن السلطات السوفيتية قد أرسلت إلى كل عالم تصميماً ليوافق عليه فيبقى أن تشرع في البناء ، وأنها ستقوم بنفقات إنشاء هذه المنازل وتكاليفها ؛ كما ستقوم بالانفاق على هؤلاء العلماء وتتعهد بما يقلق خواطرهم من الناحية المادية حتى تتيح لهم الفرصة في خدمة العلم وقصر جهودهم على العمل في معاملهم .

ومن نحو خمسة عشر عاماً فكرت الحكومة الفرنسية في بناء مدينة للأدباء والفنانين والعلماء على أن تكون في الوضع الذي يلائم أمزجتهم راحة وهدوءاً وطمأنينة ، ولكن المشروع لم يخرج عن دائرة التفكير ، وعلق كاتب فكه على هذا النبأ قائلا في سخرية : « أولى بالحكومة الفرنسية أن تقول إنها تريد أن تقيم مدينة للمجانين ، وإنها تريد أن تريح المجتمع من هذيان أولئك الذين يقولون عنهم إنهم أدباء وفنانون » .

وهذا التفكير الحديث في أوربا قد سبق إليه آباؤنا وخرجوا به إلى دائرة التنفيذ والتحقيق منذ قرون ، فقد وقفوا على الأزهر الأوقاف الضخمة ، وأنشأوا به الأروقة والمساكن ، ورتبوا الرواتب للعلماء والطلاب حتى يكفلوا لهم الراحة المادية ، ويصرفوا أذهانهم عن التفكير في شئون العيش إلى التفكير في مسائل العلم .

والواقع أنه ليس هناك همّ أثقل على نفس العالم والأديب من التفكير في شئون المال وتدبير العيش . ويروى عن الإمام أبي يوسف أنه قال : جلست في بيتي وقد نشرت كتب العلم بين يدي وأخذت أجتهد في تحرير مسائل الفقه والتشريع ، فدخلت الجارية عليّ وقالت ليس في البيت دقيق ، فطارت من رأسي أربعون مسألة ولم تعد واحدة منهن أبداً .

فنحن نغتبط أن تهتم الحكومات بتوفير العيش والطمأنينة المادية لرجال الفكر حتى ينتجوا ويثمروا ، ولكننا لا نرى من الخير لهم وللمجتمع وللعلم أن يعزلوا في أماكن خاصة ، لأن المفكر إنما يتعامل مع المجتمع ، فهو يأخذ منه ويعطيه ، وبهذا يكون عاملا من عوامل تطوره ، وإلزام العالم والمفكر بالانتاج لا يجدي ، فقد تخطر له الخاطرة ، أو تطوف برأسه الفكرة وهو سائر في ضجيج الشارع أو في مجتمع عام صاخب أو وهو يرى مشكلة تواجهه المجتمع ، وليس من شك في أن عزل العلماء والمفكرين سيصيرهم على مرور الأيام أشبه بطبقة الكهان ، وسرعان ما يضيق بهم المجتمع على هذا الوضع ؟ ويضيقون هم بأنفسهم .

(م . ف . ع)

لن تقوم في الأرض مملكة يهودية فلسطينية :

دعا سليمان يوماً فاستجيب له — ونال مالن ينال الناس من بَعْدُ

ترى أنال غنى ؛ والأغنياء على — ظهر البسيطة لا يحصى لهم عد ؟

أم نال مملكة مهما علت وسمت — ففي ممالك أخرى العز والمجد

ما نال إذ نال من شيء يميزه — عن العوالم لولا العقل والرشد

أمسى (الحكيمَ) ووصفٌ غير مطردِ — أن خصّ فيه . بمعنى ما له حد

فما انبغى قط أن يُعطى حكومته — على اليهود يهوديٌّ وإن جدوا

ففوق حكمة أهل الأرض قاطبة — جمع اليهود وإن لانوا أو اشتدوا

كالمال (معبودُهم) قد بُعثروا بَدَداً — وليس مما قضى في أمرهم بد

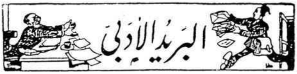
من معجزات سليمان تآلفهم — والمعجزات (كأهليها) لها حد

عيشى فلسطين في أمن وفي دعة — فمعجزات سليمان لها عهد

قد قال : «رب هبني ...» قالْ : « مملكة — على اليهود » ، وتمّ الموقف الفرد

لا ينبغي لسواه بعده أبداً . — تجميع من ربُّهم في المصرف النقد

محمد النهامي وعبد اللطيف النشار



أدباء العروبة :

نشرت مجلة الرسالة فى عددها الصادر بتاريخ ١٩٤٦/١١/٣٠ كلمة تحت هذا العنوان عجبت كيف قبلتها وهى ملتقى أقلام أهل الأدب وميدان النابهين من رجال الفكر ، وقد أدهشنى ما جاء بهذه الكلمة من أحكام لا تصدر إلا عن تحيز أو غرور .

وأحب أن أبين للقراء ما دق على فهم الكاتب من أهداف (جامعة أدباء العروبة) فى رسالتها للنهضة بالأدب العربى ، والسير به قدُماً إلى الأمام .

فالجامعة تعمل على إيقاظ الذهن العربى وتوجيهه نحو الآفاق البعيدة الجديدة من آثار المفكرين النابهين النوابغ ، وتريد أن تصل الشرق بالغرب فى النافع من الثقافة والأدب ، وتجد فى سبيل توثيق الأواصر بين الأدباء ليسيروا متساندين فى خدمة الضاد ، سواء أكانوا من المنضوين تحت لوائها أم من أنصارها الذين يعملون للأدب العربى مستقلين لا يرون فى التقيد بالجمعيات خيرا كبيرا . فليس هناك احتكار للأدب فى أذهان القائمين بأمر جامعة أدباء العروبة كما زعم الكاتب . وإنه ليسر الجامعة أن تعاون كل من يدعو لخدمة الأدب العربى والنهوض به أفراداً وجماعات . وهنا أريد أن أشير إلى ما سماه الكاتب انقساما فى صفوف الجامعة ، فليس خروج واحد أو اثنين على جامعة الأدباء يعد انقساما يتساوى فيه الفريقان . على أن جامعة أدباء العروبة يسعدها أن تسمع كل يوم عن تأليف جماعة لخدمة الأدب والشعر ، وتدعو لها صادقة بالتوفيق والسداد .

ثم كيف تأتّى للكاتب — وأحسبه من قراء الرسالة — أن يفهم أن هؤلاء الذين توفروا على خدمة أغراض الجامعة ، يحتكرون الأدب ، وأنهم عدا واحد أو اثنين من غير الصف الأول ! لقد أخطأ خطأ مضاعفا ؛ فإن الذين يعملون معنا ، إنما وقع عليهم الاختيار قبل كل شىء لنشاطهم فى خدمة أغراض الجامعة النبيلة فوق ما يتجملون به من أدب وثقافة . وهم فوق ذلك — فى مجموعهم — يقفون فى الصف الأول من رجال الأدب العربى فى هذا العصر .

والجامعة لا تتردد فى دعوة البارزين من رجال الفكر والقلم فى كافة أنحاء العالم العربى للمساهمة فى نهضة الأدب ورفع شأنه بغض النظر عن كونهم من أعضاء الجامعة أو من أنصارها ، أو من المستقلين عنها كل الاستقلال .

وإذا لم يكن شاعر مصر الكبير أستاذنا العقاد والشعراء النابهون : ناجى ، وغنيم ، والأسمر ، وأبو فاشا ، والغزالى ، والعوضى ، وعبد المنعم ، وشمس الدين ، وحمام ، والملاحى ، وعماد ، وكامل الكيلانى ، ونخيمر ، والجرنوسى ، وعبد الحميد مرسى ، والجبلاطى ، وكبار كتابنا النابغين هم الذين تلمع أسماؤهم فى أول الصف الأول من أدباء العالم العربى ، فأين يكون هذا الصف الذى يعمل فى الخفاء ، وينشر رسالة الأدب فى خفر واستحياء !

أما ما جاء فى ثنايا كلام الكاتب من أن أحد الأعضاء نقل الأدباء فى سياراته إلى القناطر الخيرية ... الخ فهو ضرب من المهاترات الرخيصة التى لا تستحق العناية .

دعونا نعمل ، فإننا نرى لتحقيق غايات شريفة نقصد بها وجه الله وخدمة الوطن ، بعيدين عن السياسة والحزبية ، والأغراض الذاتية . ونرفع راية الضاد عالية يتفيأ ظلها من أراد بشرط أن يكون كفأ ومخلصا فى السعى لما نرمى إليه ، والله ولى التوفيق .

ابراهيم دسوقى أباظه

الرسالة : نعتذر مخلصين إلى حضرة صاحب المعالى رئيس (جامعة أدباء العروبة) مما أخذه على كاتب الكلمة . ونؤكد لمعاليه أن من أمانىّ الرسالة أن تتألف فى كل طائفة من طوائف الأمة جماعة للأدب يقوم عليها وزير أو كبير . ولقد كانت الرسالة أول من سجل اهتزاز الأدب واعتزاز الأدباء بتولى معاليه الوزارة ؛ إذ لا يستطيع — والأدب من طبعه وفى استمداده — أن يخلى منه نفسه وهمه وعمله ومجلسه . وإنما عز الأدب بعز أهله . وحسب الأدب اليوم أن يكون من منتجيه ومشجعيه وزير ! ولو لم يعمل صاحب المعالى إبراهيم دسوقى أباظه باشا ما عمل للفن الرفيع فى وزارته وفى داره وفى حزبه لما تميز فى رأينا على نظرائه الذين تقدموا بالأدب وتعرفوا به ثم أخروه وأنكروه . وإذا كان فى الناس من ظن أن رياسة الباشا لجامعة الأدباء تشريف ودعاية ، فقد ثبت من هذا البيان الحازم أن رياسته لها تكليف ورعاية .

أعوذ بالله !

أعوذ بالله من ... أأقولها ؟ من صورتي أنا ! ولست أعني الصورة التي صورني الله بها ؛ فإني راض عنها أحمد الله عليها ، ولكن أعني هذه الصورة التي وضعت مع مقالتي في العدد الممتاز وقالوا ... إنها صورتي ! مع أنها لا تشبهني ولا أشبهها وليس فيها ملامحي ولا سماتي ، ولم يرها أحد ممن يعرفني إلا قال كما قلت : أعوذ بالله ! أهذه صورتك !

لا والله يا إخواننا ، ليست صورتي ، ولا أدرى من الذي صورها ، ولكن الذي أدريه أن هذا (المصور ...) مثل زميله الأول الذي بلغ من حذقه ومعرفته بصناعته ، أنه صور (ديكا روميا) فما شك أحد ممن رأى الصورة ، بأنها (خريطة الحبشة)

وأنا أفهم من التصوير الكاريكاتوري أنه لابد فيه مع إظهار القبائح ، وتعمد الاضحاك ، من إثبات الملامح والدلالة على الشخص المصور حتى لا يتردد كل من يعرفه إذ يرى الصورة ، في أن يقول ضاحكا : هذا فلان ، فإذا لم يعرف من الصورة صاحبها ، ولم يوجد فيها مايدل عليه ، ولم تشتمل على فكرة ولا على إضحاك ولا تظهر معنى من المعاني ، فإنها لا تسمى صورة أصلا .

ولا عبرة بأن هذا (المصور ...) أبرز ملامح بعض كتاب الرسالة ، كعزام باشا مثلا ، وأنه يجيد تصوير الوزراء ورجال السياسة ، فإن كل إنسان إذا مرن على تصوير رجل يحذق صورته . ولقد كان عندنا في الثانوية ناظر عجوز له شاربان ينزلان على شفتيه وأنف أعقف كمنقار الصقر ، وذقن غائص في وجهه لا يكاد تظهر ، ووجنتان فيهما حفرتان ، فكنا نصوره بخطوط معدودة فتبرز ملامحه لا يعجز عن ذلك طالب فينا ، أما المصور البارع حقا فهو الذي تظهر براعته في كل صورة ، ويصور كل إنسان ، وعندنا في الشام من ينظر إليك دقائق ، فيصورلك صورة تضحك أنت منها ، ولا يشك أحد من أصحابك في أنها صورتك

ثم إن هذه الصورة المنشورة مع مقالتي ، لفتى في السادسة عشرة وأنا في حدود الأربعين ، وهي لشاب حيي مسكين ، وأنا رجل شرس ما كنت ، ولله الحمد ، مسكينا قط .

فإن كان هذا هو (الفن) في مصر ، فيامنية الفن في مصر !

علي الطنطاوي

ذكرى باعث الشرق :

في منتصف شهر مارس من عام ١٨٩٧ ، انتقل المغفور له السيد جمال الدين الأفغاني إلى جوار ربه ، ففي مارس القادم يكون قد مضى على وفاة ذلك المصلح العظيم خمسون عاماً كاملة .

ومن نافلة القول أن تقول إن جميع أقطار الشرق الإسلامي مدينة في نهضاتها ووثباتها ، وما تحقق لها من مظاهر التقدم والحرية للسيد جمال الدين الأفغاني ذلك الرجل الذي قضى حياته يكافح الاستبداد وينافح الاستعمار ، ويصيح بالشرق المستسلم أن يستيقظ ، وفي هذا السبيل عاش شريداً طريداً تدفعه يد الأقدار أو يد الاستعمار من قطر إلى قطر ، وتخرجه من بلد إلى بلد ، حتى قضى شهيداً في مطارح الغربة ، وليس حول سريره زوج ولا ولد .

ليس من شك في أن الأفغاني — نضر الله قبره ونور ضريحه — قد أقام دعائم النهوض للشرق الإسلامي ، وبنى لحراستها قلاعاً من الرجال وإن بقية الخير وطلائع الإصلاح في الشرق هم تلاميذه ، أو تلاميذ تلاميذه ، وما كان للأفغاني مع هذا من ولد يريد أن يورثه المجد ، ويحفظ له المكانة ، وما كان له من مطمع في رفاهية الحياة فقد احتقر عروض الدنيا من أيدي السلاطين والحكام ، وازدرى المال والرفاهية ، وعاش حياة خشنة أشبه بحياة الصوفية والمتزهدين ...

واليوم وقد مضى على وفاة ذلك الرجل الذي وهب حياته للشرق خمسون عاما ، فهل للشرق أن يذكره في هذه المناسبة ، وأن يذكر أبناء الجيل بما كان في حياته من قدوة ، وفي سيرته من أسوة ، وفي جهاده من قوة ...

إن أقل ما يجب في هذه المناسبة ، أن ينهض الشرق الإسلامي ، شعوبه وحكوماته ، هيئاته وجماعاته ؛ مدارسه وجامعاته فتقيم أسبوعاً عاماً يدعى بأسبوع جمال الدين الأفغاني ، وليس ذلك يعلم الله واجبنا نحو الرجل . بل إنه واجبنا نحو أنفسنا قبل كل شيء حتى ندفع عن أنفسنا معرة النسيان ، وتهمة الجحود والكفران .

محمد فهمي عبد اللطيف



القبر تحت قوس النصر

مأساة عن الحرب العظمى في ثلاثة فصول

للكاتب الفرنسي بول رينال

نحن في منزل بإحدى القرى الفرنسية أثناء الحرب العظمى، وقد جلس رجل في الستين من عمره مع فتاة في العشرين تدعى أود وشاب يرتدي الثياب العسكرية. وسرعان ما تفهم أن هذا الجندي هو ابن الهرم وخطيب الفتاة وأنه قدم من ساحة القتال ليرى أسرته وليقوم بعقد زواجه على خطيبته «اود» فقد حصل من أجل ذلك على إجازة أربعة أيام. ولا يكاد الحديث يدور بينهم حتى يعلم من أبيه الشيخ أن خطيبته قد تكلفت إظهار السرور بعد أن غادرها وذهب إلى ساحة القتال، وأنها فعلت ذلك لكي ترضي والده. ولكنها بعد ذلك أخذ القلق يساورها فبدأت تستفسر عن نشأة ابنه الغائب وعن طفولته وشبابه. كان ذلك عزاءها في غيبته. ويسأل الجندي عما إذا كانت قد وصلت رسالة باسمه إلى المنزل فينكران أولا ثم يحضران له الرسالة فإذا بها من مركز القيادة التابع له وفيها يأمره بأن يلغي إجازته ويعود إلى خط القتال. ولا يكاد يقرأ تلك البرقية حتى يضحك كما لو كان قد فوجئ مفاجأة سارة، ثم يسأل خطيبته: لما ذا لم تخبريني عند حضوري؟ فتجيبه: لقد كنت مبتهجا. فيذكرها بالواجب الملقى على عاتقه، وكيف استشهد من فرقته ألفان، وأنه لا بد أن يكون قد صدر أمر بهجوم جديد ويصمم على السفر في أول قطار يقوم في الفجر إذ أن قائده لم يسمح له بالسفر إلا على شرط الرجوع إذا جد في الأمر شيء. وأن هذا القائد عند ما سمح له بذلك كان يقدر الخدمات التي أداها للوطن كجندي باسل.

ولا يكاد الابن يذكر مسألة الزواج التي قدم من أجلها حتى يبدي الأب اعتراضه وتقره «أود» على ذلك فزيارته قصيرة لا تسمح باستيفاء إجراءات الزواج.

ويخرج الجندي ويخلو الأب إلى «أود» فيذكر لها أنه واثق من أن ابنه لم يكن ليفكر في الأخطار الكبيرة التي كان معرضاً لها بقدر ما كان يفكر فيها هي. وفي تلك السعادة الجميلة التي قضت الظروف بحرمانه منها. فتسأله:

— وماذا أفعل لكي أعيش؟

— سأعينك

أتحميني من الشجن والشقاء؟

وتتطور المناقشة بين الإثنين، فتذكر له العروس أن واجبه نحو ابنه قد انتهى وأن عاطفته نحوه إنما هي استمرار آلي لما كان يشعر به عندما كان ابنه لا يزال طفلا. أما هي فواجبها لم يكد يبدأ بعد. وعند ئذ يقول لها في تأنيب خفيف:

— إنه ابني ... فتجيبه بكل روحها: — إنه حياتي

ثم تنبهه إلى أنه ما دام قد حضر فمن غير اللائق أن يدور الحديث على شيء آخر غيره. وأن واجبها الأوحد هو أن تحبه وتذكره بالضحكة التي ضحكها عند ما قرأ البرقية الواردة باستدعائه، وكيف أن هذه الضحكة الرهيبة قد أرعدتها وهي تشرح ذلك فتقول إنه يحمل طابع الحرب على شخصيته. ولقد أحست هي نفسها بكل هول الحرب عندما رأت كيف تقلصت عضلات وجه المحبوب واستحال إلى عنف مخيف بمجرد أن نظر إلى البرقية.

ويلاحظ الأب الشيخ أنها لم تعد تتحدث إلا عن خطيبها، وأن ابنه لا يتحدث إلا عنها. ويبدو له أنهما يشعران بأنه ليس بين الأحياء سواهما. وهو يحس لذلك بغضاضة على نفسه، ويشعر بشيء من الغيرة إذ يسيطر الشباب هذه السيطرة على منزله. ويتحداه كما كان الظافرون يتحدون خصومهم المغلوبين بالسيوف فيما مضى! وهو يخشى أن يكون عقبة بين ابنه وبينها. وتدهش «أود» لذلك وتصارحه بأنه جد مخطئ إذ يفكر في ذلك كله ولكنه يقول برغم هذا: — ما أسعد هؤلاء الشبان. إن الحرب لم تغير كل شيء! مهما حدث على الأرض فلا يوجد دائما إلا مصيبة واحدة. تلك هي الشيخوخة!.

ثم يعود الابن في ثياب مدنية ويخرج الأب بعد أن يحاول

استصحاب الفتاة معه فيرجو منه ابنه أن يتركها له قليلا . ولا يكاد العروسان يختليان حتى تلتمس منه « أود » أن يصفح عنها ، فاذا سألها عن أى شيء تطلب الصفح ، أجابته عن أنها استطاعت العيش بعده . ثم تقول له : — إنك تمثل لناظرى كل الأمور . إننى لاأملك من حطام الدنيا إلا التفكير فيك . إنه غذاء كيانى ونار نفسى ، وهدف عينى ، وطابع صوتى ، ومجرى دمى . إنه كل شيء . إنه أنا ! .

ثم تذكره بمنشأ علاقتها به ، وكيف أنها طالما زهت وفاخرت بمعرفته وكيف تمنت أن تكون زوجته ، فاذا قال لها — ستكونين زوجتى يوماً ما .

أجابته بعد مجهود كبير : — كنت أود أن أكون زوجتك هذه الليلة .

فيذكر لها أنه ليس من حق أحد فى فرنسا أن يكون سعيداً فى هذا العام ، وأنه يود أن يدعو كل أصدقائه وزملائه فى الجيش إلى حضور حفلة زواجه ، ويشعر أنهم جميعا يشخصون اليه ، ويمدون إليه أيديهم الرقيقة سواء منهم الأحياء والأموات .

هى — الأموات ؟

هو — أصدقائى الذين استشهدوا والذين لو بقوا لكانوا هنا الآن . أين هم ؟ إننى أدعوهم . فلو ظلوا أحياء لكانوا الآن فى مراكزهم بساحة القتال . ولكنهم ماداموا قد ماتوا ففى مكنتهم الحضور ! إننى أنتظرهم . سيظهرون ، ليحضروا ، فلن أتمتع بكل بهجتى وسرورى بدونهم . إننى أناديهم .

ثم يبدأ فى مناداة أصدقائه من المحاربين الأموات إلى أن يصل إلى اسم صديق تعرفه خطيبته « أود » فيذكر لها كيف أن ذلك الصديق قد سقط مضرجا بدمه فى أحد الحصون وكيف أنه طلب إليه أن يرفع تمنياته الصادقة إليها وأن آخر كلماته له وهو يحتضر بين يديه : « كونا سعيدين » وتعجب « أود » بهذه العظمة التى تتجلى فى شخصية خطيبها . وتشعر أن نفسها عاجزة عن مجاراته فيها فتقول له : — إننى بجانبك أحس فى نشوة بعظمتك . وفى اضطراب بشقائى .. أنت توقن بأنك عظيم فيجيبها فى حزم وزهو : — أجل .

— هذا ظاهر ! إن هذه الروح التى لاتتجلى إلا فى جبهة القتال جعلتك مختلفا عنا وأسمى منا ، إننا لانستطيع أن نفهمك .

ثم تطلب إليه أن يرفعها إلى مرتبته وأن يسمو بها إلى درجة البطولة ، أن يرفعها إلى تلك السماء التى تخضبت بدم الشرف الحربى فيقول لها : — إن من يطلب ذلك بهذه اللهجة فلا شك إنه يحصل عليه .

— كلا .

— إنك أنت تلك البطلة التى ترغبين فيها .

ثم يطمئنها بعد ذلك ويخبرها أن الحرب قد وضعت أوزارها وأنها لن يندلع لهيبها بعد . ويتجاذبان أطراف حديث قصير . ثم يهبط الستار وهما يضحكان .

فاذا كان الفصل الثانى فنحن فى غرفة العرس التى قضى فيها العروسان ليلتهما . وهما يتحدثان عن تلك الليلة فنفهم أن « أود » قد وهبت خطيبها الجندى أعز ماتملك الفتاة العذراء ! وهى تذكر له أن هناك أشياء كثيرة لايزالان يجهلانها ومن بينها ماهو فى منتهى البساطة . وهى تعطى مثلا على ذلك أنها لم تره من قبل ، ذلك أنها لم تره قط وهو مغمض العينين . ولذا تطلب إليه أن يغمض عينيه ، فيفعل . ثم يخبرها أنه قد فهم ماتريده من وراء ذلك فإن عينيه المغمضتين تذكرانها بموته ! فتنكر ذلك فى ضعف . ولكنها تعود فتسأله ثانية عما إذا كانت الحرب قد انتهت حقا كما كان قد أخبرها . وتلح فى سؤالها إلحاحاً شديداً وعندئذ يصارحها بأن الحرب لم تنته وبأنه لا يزال أمام النصر النهائى مدة طويلة ؛ وهى تذعر من هذا النبأ وتلومه على أنه أطاعها وصارحها بالحقيقة ، وتخبره بأنه ما كان يجب أن يعبأ بالحاح امرأة مفتونة ! وهو يلاحظ مبلغ وقع النبأ عليها . وكيف أنها أحست بشبه خيبة فى حبها له . فسوف تضطر مرة أخرى إلى انتظار مدة طويلة وهى تتوسل إليه أن يبقى إلى جانبها ولكنه يجيبها أنه وحده دون باقى زملائه فى الثكنة قد استطاع الحصول على أجازة . وأن قائده قد اشترط عليه وجوب العودة بمجرد استدعائه . وها هو قد استدعى . ولا بد أن يكون الجيش فى خطر . فقد أخبره قائده أنه لن يستدعيه إلا إذا كان هناك خطر داهم . وهو بناء على معلوماته وبعد ورود تلك البرقية أصبح يوقن بأن المعركة الفاصلة ستدور رحاها يوم الأحد القادم ، ولذا يجب الرحيل عند الفجر . وهو ينتقل بعد ذلك فيفوق كلامه كما لو كان ينطق بلسان كل جنود الجيش الفرنسى . فيذكر لها كيف يجب

أولئك الجنود نساء فرنسا . وكيف يموتون وهم يذكرونهن ويتمثلون ابتساماتهن الساحرة . وتتملكه فجأة نوبة يأس وأسى فيخبرها أن هــذه الحرب لا تعدو أن تــكون كسابقاتها من الحروب ، لا تــكاد تضع أوزارها حتى يكتفى الشعب بأن يلبس الحداد فى استهتار وعدم اكتراث مدة ما . وتلقى بعض الخطب بجانب التماثيل القائمة للشهداء . ثم سرعان ماينسى كل شيء ويعود الجميع إلى السرور والمرح واللهو والعبث . وهو لاينكر من السعادة التى سوف يفوز بها الذين سيبقون بعد موت أولئك الشهداء ، فهو يعلم أنه يفنى حياته لــكى يمهــد السعادة للباقين ولــكنه يرجو على الأقل أن تحتفظ فرنسا بذكريات أولئك الشهداء ، وهو يربأ بذلك التمثال الذى شادوه من حطام آلامهم وأحزانهم أن يدفن فى رمال الأجيال والقرون ، وهو يرى أنه يجب على فرنسا أن تستمر على معرفتهم وأن ترثى لهم وتترحم عليهم ! وتنصت « أود » إلى قوله فى صمت ثم تؤكد له أن الأموات من جنود الوطن يسمعونه ، فيناديهم بأسمائهم ، ويخبرها أنه قد تبين أصواتهم فقد أجابوه وقالوا له جميعاً : « كونا سعيدين » .

ثم تطلب إليه أن يدنو منها وهى تقول له فى لهجة شعرية رائعة أخاذة .

— دع شفتى حتى أستطيع أن أحدثك ... ضع فمك بقربهما تماما . لا . اعطنى إياه . آه كم كنت أود أن أتمكن من إعطائك قبلاتى وكلماتى فى آن واحد ! أغمض عينيك كما أغمضهما أنا . أطفىء هذا الضوء الشرير (يطفىء المصباح وعندئذ تظهر على زجاج النافذة بشائر الفجر ، الفجر الفظيع الرهيب الذى تحدد لرحيل الجندى العاشق . ولــكنهما لا يزالان مغمضين عيونهما فلا يرياه) إننى إذاً كون لك أنسى العالم . خذ منى كل ما فى من شباب . إننى أعطيك إياه . إنه لك . لك وحدك . لك دائما وإلى الأبد . أنت وحدك الذى سوف يعرف حرارة جسدى ، إننى أذوب فى حياتك . ثم تتذكر الفجر فتفتح عينيها وتقول وهى مضطربة : أنظر . ! لا تنظر . ! إنه هو . كلا . إنه ليس هو . قل إنه ليس هو . إنه ليس هو الفجر ! فيقف ويحييها فى جرأة وإقدام : إنه الفجر .

فتمسك به وهو على حافة الفراش وتقول : ليس هــذا هو الفجر ، لا شك أنه هو !

ويتأثر الجندى الشاب لذلك الحنان العجيب الذى تظهره « أود » فيذهب إلى النافذة ويسدل عليها الستائر . وهو يقول :

إنه ليس الفجر ما دمت تريدين ذلك

— وماذا تساوى إرادتى ؟

ما دمت هنا فهى التى تسود العالم

— إذن فلا تسافر

— حسن . سأبقى

ثم يطلب اليها أن تنام لتستريح فتبدى له خوفها من أن يغادر المنزل وهى نائمة . فيؤكد لها أنه سيبقى . وتشعر أنها جد سعيدة إذ تراه بجانبها يتحدث اليها وهى فى الفراش . فهذا أبدع من سماع الموسيقى . فالموسيقى تدلل الجسد ، أما الحديث فهو وحده الذى يدلل الروح . وتلتمس منه أن يقسم لها بأنه لن يتركها فيقسم وعندئذ تتمتم : إننى سعيدة

وتنقضى فترة ثم يسألها : أتنامين ؟

(تجيبه هامسة : « أجل » فيذهب إلى النافذة ويزيح الستار . ثم يرى « أود » نائمة فتخونه شجاعته ويذرع الغرفة ذهابا وإيابا فى تهيج واضطراب ويلمس فمها بأصابعه ليتأكد من نومها وهو يتمتم) :

— « أتنامين ؟ »

فاذا وثق من أنها نائمة وضع رأسه على المائدة وأخفاه ثم أخذ يبكى وقد بدا ضوء المصباح يغمر الغرفة وهو يحاول جهد طاقته ألا يوقظ أود ... ويبكى ويبكى ... مع أنه لم يكن يعرف البكاء من قبل !

فاذا كان الفصل الثالث ، فنحن فى غرفة أخرى من غرف المنزل اجتمع فيها الأب الشيخ بابنه الجندى وخطيبته أود . وأنت تفهم منذ بداءة الفصل أن الجندى قد عدل عن الوعد الذى قطعه على نفسه أمام خطيبته ، واعتزم الرحيل من جديد والعودة إلى ساحة القتال . وهو يذكر ذلك لوالده ويلفت نظره فى سخرية إلى أن هذا الرحيل سوف يتيح له — أى للأب الشيخ — الفرصة للاستمتاع بذلك النظام اليومى الذى اعتاده فى حياته مع « أود » . سوف يعود إلى تلقى قبلتها فى المساء قبل أن تذهب إلى فراشها ، وإلى سماع صرير المفتاح فى باب غرفتها ، وإلى التلذذ بالسكون الفاتر يسود جو المنزل . وأنت تحس بأن الشيخ يحوم حول معرفة ما فعله الشابان فى الليلة الماضية ، وهو يرغب فى معرفة ذلك ، فهو يذكر أنه لم يرضوا فى غرفتهما عند ما أغلق نافذته فى منتصف الساعة الرابعة ويتساءل عن سبب ذلك . وهو يستشف من خلال

إجاباتهما ما يثيره ويستفزه ، فهو يهاجم ابنه إذ اجترأ على تلويث فتاة عذراء كانت تحت حمايته هو ! وأنت تحس من طريقة إلقاء ذلك الشيخ ولهجته أنه يغار من ابنه غيرة لا يكاد هو نفسه يشعر بها ، فهى غيرة تشتعل فى عقله الباطن ، ويتجاهل أن تلك الفتاة إنما هى خطيبة ابنه وحليلته ، وهو لا يستطيع أن يضبط غيرته من الشباب الذى يتمثل فى ابنه وخطيبته . ويشعر الابن الجندى بذلك ويجابه أباه به ، وينكر أن للأبوة حقاً فى أن تتعرض لمثل ما تعرض له أبوه . فلا يمكن أن يحكم على تصرفات جندى الامن عرض حياته للفناء فى ساحة القتال ، ويثور الابن فيصارح أباه بأنه إنما ينتقده لأنه لا يريد أن يحرم من التمتع بذلك النظام الذى اعتاده فى حياته مع « أود » أثناء غيبته فى الحرب ، ثم يقول بمنتهى الصراحة : « إنه مما يضايقك أن أظل حياً ! ويدهش الأب الشيخ لذلك ، ولكن الابن الجندى يعلل هذا بما سبق من أن أباه يغار منه دون أن يشعر بتلك الغيرة ، وهو يحس الآن بأن غيرته قد جرحت بعد الذى علمه مما دار بين الخطيبين فى الليلة الماضية » . ويثور الابن على شيوخ العالم ويقول : « إن الشبان قد اختفوا فى هذه الحرب وعاد الشيوخ إلى احتلال مكانتهم كرجال وشبان من جديد . ويتهم والده بأنه يكرهه . وهنا تطلع « اود » والد خطيبها على ما ذكره لها خطيبها من أن الحرب ستطول وأنه أخفى عليهما ذلك . ويدهش الأب لهذا ، وتخشى « اود » أن يموت خطيبها فى تلك الحرب ! وعندئذ يقول الجندى لها :

إذا مت فانى أمانع فى بقائك هنا — ثم يبدى رغبته فى أن يصطحبها معه إلى باريس ، فتمانع فى ذلك ، ويظن الأب الشيخ أنها تمانع من أجله فيشكرها . ويلح الجندى فى ذلك ويطلب اليها أن تختار بينه وبين أبيه ؛ ويدور بينها وبين الشيخ هذا الحوار العجيب !

هى — سيرحل ؟

الشيخ — هل طرده أحد !

هى — سيذهب ؟

الشيخ — ليذهب

هى — سيعود إلى وطيس المعركة

الشيخ — فليؤد واجبه

هى — إنه يواجه الموت

الشيخ — يتوهمون ذلك دائما !

وفى تلك الأثناء تكون أود بجانب الشيخ فيظهر عليها الاشمئزاز منه وتتراجع وهى تنظر اليه فى احتقار وازدراء وتقول فى صوت قوى : إنك ترعبنى ! فيصيح الشيخ : « اود ! »

ولكنها تلتفت إلى الجندى وتقول : « خذنى ! » وتصارح الشيخ بأنها تشمئز منه وأنها لا تريد البقاء . وتؤكد لخطيبها أنها لم تفكر فى أحد غيره . وأنها له وحده . تفخر وتزهى بأنها زوجته أو بأنه جعلها زوجته ! ويسألها الشيخ عما إذا كانت لم تشعر بحبه لها أو بحبها له . ولكنه ينتبه إلى وجوب التزام الوقار والحكمة ! وتلتفت إلى خطيبها فتعاهده بأنه إذا مات مستشهداً فى ساحة القتال فسوف لا تعرف فى الحياة بعده إلا ذكراه ... وينصح لها الشيخ ألا ترتبط بمثل ذلك التعهد فتسخر منه وتكرر قسمها بأنها سوف تقنع بذكرى خطيبها إلى أن تلحق به ... فاذا عاد الشيخ إلى نصحها غالت فى قسمها وعاهدت خطيبها على أنه إذا مات فستلحق به . ثم يشتد بها الضجر من الجو الذى يحيطها فتطلب أن يأخذها معه فيتوسل الشيخ إلى ابنه قائلا: اتركها لى. وعندئذ تلتفت اليه وتقول : أتوجه اليه الكلام!

الشيخ للجندى — قل لها أن تبقى . وتسخر منه اود فيعترف بأنه وهب قلبه لها للمرة الأولى فى حياته . فتنبهه إلى أنه يجب أن يهبه لابنه وحده . ثم تسأله: هل تعرف شيئا عن الحرب؟

الشيخ — أعرف اليوم للمرة الأولى . ثم يعترف بأنه لا يمكن لامرىء معرفة الحرب إلا بعد أن تدميه وتمزق قلبه . وها هو يشعر بقلبه يتمزق ! وعندئذ تشير إلى الجندى قائلة : إذن أنظر اليه الآن !

الشيخ (بتألم) — يا صغيرى المسكين !

وتطلب إليه أن يحبيه ويستغفره فيتقدم الشيخ إلى ابنه ويسأله الصفح وهو يقول : إن البطولة أيها الشبان من حقكم الطبيعى . إننى أتوسل إليك أن تعفو عما ارتكبته من حطة وضعة. لا أطلب شيئا آخر ... سافرا ... انسيانى . (لابنه) ولكن لا تسافر قبل أن تقول لى أنك عفوت عنى .فها أنا ذا والدك أجثو تحت قدميك . عفوك . فيتأثر الابن الجندى ويعفو عن أبيه ثم يقول : إنه لشىء جميل أن يكون رجل هرم مثلك بهذا الحنان . لا تأسف على ما شعرت به من الألم . فاذا تألم الشيخ أصبح شابا. لا وسيلة غير الألم لكى تقترب منا نحن الشبان .

وهـذا هو فى الواقع محور القصة كلها ، فقد وفق المؤلف

توفيقاً تاماً إلى الغرض الذي يرى إليه . إذ كان واجب الإبن الجندي أن يرفع خطيبته ووالده إلى مستوى البطولة ، وأن يسمو بهما إلى المثل العليا النبيلة التي وصل إليها حماة الوطن من جنود الجيش الفرنسي أثناء الحرب ... وها هما قد ارتفعا وسمت نفساهما إلى السماء ... وهـا هو الإبن يعرض على « أود » أن تبقى مع والده بعد أن صفح عنه ، فيأبى الوالد هذه المرة ويرفض . ولـكن الإبن يلح فيقبل الشيخ في خجل وحياء أن يحمى زوجة ابنه . ويلتفت الجندي إلى خطيبته فيطلب إليها ألا تنفذ ما قالته له من أنها ستلحق به إذا مات في ساحة القتال فهو لا يريد ذلك . بل هو يتوسل إليها أن تبحث لها بعده عن شاب يكون قد خاض غمار الحرب وأدى واجبه القومي . ويجب عليها ألا تترفع عن حبه إذا بادلها هو الحب . فإذا وصلت شخصيات القصة الثلاث إلى هذا الحد من السمو والتطهر اقتربت اود من خطيبها وهي تقول : أحبك ... ويقول الوالد لابنه في صوت قوي : إبق حيا .

ويظهر الإبن الرضى والاطمئنان ويتقدم إلى الباب وهو يقول : حسن .

وتنتهي القصة هكذا .

الشيخ — عد إلينا ناجيا

مي — أحبك

الشيخ — إنني في حاجة إلى يدك لـكي تغمض عيني .

مي — أحبك

ويكون الجندي إذ ذاك قد بلغ الباب فيلتفت إليهما ويقول في لهجة مفعمة بالحب : كونا سعيدين !

ثم يختفي ويسمع صوت الباب الخارجي وهو يغلق ثم صوت العربة وهي تبتعد . وتظهر علامات الأسى على « اود » فتسقط على أحد المقاعد ويشترك الشيخ والشابة في البكاء والأنين !

(البصرة) سهيل

مطبعة الرسالة